رسالة في النسبة

تأليف

جبر ضومط م.ع

استاذ اللغة العربية في الجامعة الاميركانية في بيروت

الطبعة الاولى

بيروت مطبعة الوفاء سنة ١٩٣١

مقدمة

هذا هو كتاب «النسبة» الذي نوَّهت به بعض الجرائد والمجلات قبل طبعه نزفه الآن الى ابناء اللغة العربية بحلة قشيبة ليقفوا على آخر ما جرى به قلم مؤلفه الاستاذ الكبير المرحوم جبر ضومط في مضمار الكتابة والتاليف مما املاه عليه في اواخر حياته علمه الواسع وفكره الناضج · وهو بحث مبتكر لم يسبق اليه فيما نعلم · دوَّنه الفقيد ونقحه على امل ان يشارف طبعه ويصلح مسودَّاته بنفسه ولكن عاجله القضاء المحتوم قبل ان تتحقق له هذه الامنية

وقد جرى في وضع هذا الكتاب على الخطة التي توخاها في سائر مولفاته السابقة التي اتحف بها ابناء اللغة العربية وهي خطة النقد والتحليل والبحث العلمي الدقيق مع التشدُّد في الذهاب الى ما لبداهة الفطرة وسلامة الذوق في اختيار الانسب من الصيغ والالفاظ فحث تكراراً على مماشاة البداهة الفطرية وعدم التنكب عن المألوف · فمن اقواله (ص٥) «ان لبداهة الفطرة ادراكاً خفياً دقيقاً ترى به الحقيقة قبل ان يراها العقل بالبرهان» وقال ايضاً (ص ٤٥) «واياك ان تترك المألوف الشائع على الالسنة الى ما تحفظه بطون الدفاتر او رواه بعضهم فهجرت مع الايام روايته · فالبلاغة توجب ما هو اكثر شيوعاً على الالسنة وتنكر ما هو على عكسه الاَّ لغرض وتحسبه من قبيل الضرورة والضرورات تبيح المحظورات اذا كان في الاباحة كبير فائدة لا تتأتى بدونها» وقد ايد ذلك بالشواهد الحسيَّة والاستقراءات المستفاضة فجاء جميع

ما تناوله من المباحث سلسلة متينة الحلقات اشترك في احكام صنعها العقل والنقل والذوق السليم

وتجد هنا وهناك في ثنايا الكتاب جولات تاريخية توسّع على المفكر دائرة البحث ويجد فيها القارئ مقدمات جلية لنتائج لغوية تهون عليه ادراك الحقائق دون عناء او كد ذهن بل ان الاسلوب الذي عولجت به فصول الكتاب كثيراً ما جعلت من البحث العلمي الدقيق حديثاً شهياً تتدفق منه السلاسة تدفق الماء السلسبيل في الحدائق الغناء

وكان في نية الفقيد ان يشفع هذا الكتاب بمؤلف آخر كبير يجمع فيه كثيراً من الدقائق والحقائق اللغوية التي كانت تخطر بباله في سني حياته الاخيرة بعد ان بلغ عقله تمام نضجه ويمنعه عن ابرازها الى حيز الوجود الضعف الجسدي الذي كان يلم به بين فترة واخرى فيقعده عن الكتابة

ولا يقدر من يطالع هذا الكتاب بروح التجرد والاخلاص الا و يشهد لمؤلفه الفقيد بسعة العلم وقوة الحجة وبذل المجهود في تحرير اللغة التي احبّها حباً جماً من إسار التقليد الذي رسفت فيه آماداً طوالاً

وقد نشط اخيراً اصغر انجال الفقيد نجيب افندي الى تحقيق امنية والده العزيز فطبع الخواطر الحسان في المعاني والبيان ثم هذا الكتاب النفيس الذي سيلقى — بلا ريب — اقبالاً عليه يستحقه ادب مؤلفه الرائع وعلمه الواسع نفعنا الله بفضلهِ وعلمهِ حياً وميتاً

داود فرباده

سليمان بك ابو عز الدين

اصلاح خطأ

نرجو تصحيحه قبل الابتداء بالقراءة

وجه	سطر	خطأ	صواب
١	٩	فالأسدُ	فَ «الأَسدِ»
٢	٣	جاكينوس	جالينوس
٤	١٥	لان النسبة كما ، اشرنا ،	لان النسبة ، كما اشرنا ،
٧	٢	لاحساً ولا تخيلاً	لا حسًّا ولا تخيُّلاً
١١	٥	لسان	لسانٍ
١١	٦	نسبة	نسبةً
١٣	١٧	المساول	المسؤول
١٦	١٢	محصورو	محصورون
١٦	١٧	يستخق	يستحق
١٨	٧	الاسلا	الاسلام
٢٧	٥	ايضاً)	ايضاً .
٢٨	٥	فلا تَخَفُ	تَخَفْ
٤٠	٩	النسبية	النسبة
٤٥	٢	على المنسوب اليه	على اخر المنسوب اليه
٤٧	١٢	المحمص	المحمصة
٤٧	١٢	هذا	هذان
٤٩	١٣	سرقنديين	سمرقنديين
٥٢	ترويسة	احل	اصل
٥٣	١٠	عنه	عند
٦٠	١٣	مما	ممن
٦٤	٧	تحفظ	تحفظ

النسبة

تحديدها وطريقها

النسبة واسطة لتصحيح الإخبار بالاسم المفرد او للنعت به · وطريقها أن يزاد على آخر ذلك الاسم ياءٌ مشددة او ما هو بمثابتها والاصل في النعت والخبر أن يكونا اسمينِ صفتينِ لأَنه لا ينعت بالموصوف في الاصل ولا يخبر به كما لا ينسب الى الصفة · على أنَّ الموصوف اذا كان نكرةً دالةً او عَلَماً اشتهر بصفةٍ جاز أن يأتي خبراً او يقع نعتاً كقوله

بَنو العَفَرنى مَحَطَّةَ الأَسَدِ الأُسْدُ ولكِنْ رِماحُها الأَجَمُ

فالأَسدِ نعتٌ «لمحطةَ» والأُسدُ خبرٌ عن «بنو العفرنى» وكقولهم في التمثيل المشهور «ابو يوسف ابو حنيفة» وزيدٌ ابوه

تنبيه أول

المبتدا والخبر اذا كانا كلاهما موصوفين ولم يكونا من جنس واحد كان الاخبار على ارادة التشبيه · ومثل ذلك النعت والمنعوت على ما في بيت المتنبي المار اعلاه : وإلا كانا من قبيل الحقيقة كالاخبار والنعت في الاصل

وعند التحقيق ، على ما ارى ، يرجع الإخبار والنعت بالموصوف الى الصفة مآلاً : وعليه فقولنا «زيدٌ اسدٌ» إنما هو إخبار بالصفة أَيـ زيدٌ مشابهٌ الاسد فأُقيم مفعولها مقامها

ولك أن تتأوّل جملة « زيدٌ أسدٌ » بقولك « زيد شجاع » و يتمشى على هذا كل اسم جنس دال كأرنب وثعلب وحمار وبغل وكلّ علمٍ اشتهر بصفة كحاتم بالكرم وعنترة بالشجاعة ومعاوية بالحلم والشافعي بالفقه وجالينوس بالطب وافلاطون بالحكمة وشوقي ومطران وحافظ وملاط وايوب وماضي والقروي بالشعر وجبران والريحاني بخيالهما الجميل ومَيّ باسلوبها البليغ الرائع

تنبيه ثاني

قلنا إنّ الصفة من حيث هي صفة لا ينسب اليها مطلقاً وكذلك هي لا يخبر عنها ولا تُنعت الاّ اذا أُريد بها الموصوف نفسه قال المتنبي :

وأَسْرَعُ مفعولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً   تَكَلُّفُ شَيءٍ في طِباعِك ضِدُّهُ

فانّ لفظ « مفعول » في البيت لفظ الصفة ولكنه يراد به الموصوف في الخارج فمن ثمّ نُعِتَ : ونُعِتَ بالجملة : وأُخبر عنه . وقال آخر

كم عاقلٍ عاقلٍ ضاقتْ مذاهِبُهُ   وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مَرْزوقا
هذا الذي حَيَّرَ الأَفهامَ قاطبةً   وصَيَّرَ العالِمَ النحريرَ زِنديقا

ومن ذلك قولهم الحكيم لا يوصى : والجاهل عدوٌّ نفسه

تنبيه ثالث

المنسوب اليه كما ينقلب الى صفة فيقع او يجيء نعتاً هو ايضاً ينقلب الى موصوف نائب مناب الصفة فيخبر عنه او يُنعت . و يكاد يكون استعماله موصوفاً لا يقل عن استعماله صفةً كقولك : « المصريُّ رجلٌ سهلُ الجانب كريمُ الأَخلاق تفيض نفسه رواءً وخصباً وهو كالنيل المبارك حيثما وقعَ نفعَ » — وكقولك « الاديب المصريُّ هو اليوم حاملٌ لواءَ الأَدب العربي غير منازع وحامل ايضاً لواء النهضة الاستقلالية الشرقية لينصبه في المكانة التي يستحقها بين الشعوب الراقية »

ماذا يكون المنسوب اليه

علماً لشخص او لمكان

يجب أن يكون علماً لشخص او مكان مشهور لتحصل الفائدة. او نكرة دالَّة وسنتكلم عن هذه بعد حين

إنَّ أَعلام الأَشخاص بعضها اعرف من بعض وكذا اعلام الأَمكنة من المدن والقرى والولايات الخ. فالحسنُ والحسين من اعلام التاريخ المشهورة. وكذلك ابو بكر وعمر وعلي وعثمان والزبير والنسبة الى أَحد هذه الاعلام المشهورة وظهور الفائدة من الإِخبار بالمنسوب اليها او النعت به مُدركٌ بالبداهة عند المتأَدبين بخلاف كثير ممن خفيت عنا شهرتهم فانهم قد يصبحون كالنكرات فتمتنع النسبة اليهم لِخفاء الشهرة وما يترتب عليها من الفائدة المقصودة من الكلام إِخباراً او نعتاً لا لانَّ النسبة اليهم ممتنعة لسبب آخر لفظيّ

ومثلُ اعلام الناس اعلام المدن والقرى وما اليها فباريس ولندن ونيويورك مثلاً لا يخفى على أَغبى الاغبياء ما اذا قلنا هذا باريسيٌّ او نيويوركيٌّ لشهرة المسمَّى : بخلاف ما اذا قلنا مثلاً — هذا بُصومعي — نسبة الى بصومع لخفاء شهرة بصومع عن كثيرين ممن يقرأون مقالتي هذه (الاَّ اذا كانوا من قرب تلك المزرعة) فلا بدع اذن ان ينكر كل هؤلاء أَنهم استفادوا من جملة « هذا بصومعي » وخلاصة ما نقوله أَنَّ الاعلام متى قلت شهرتها قلت

الفائدة من النسبة اليها على نسبة قلة شهرة اصحابها : اما اذا خرجتْ عن المعرفة الى النكرة بالتثنية او بالجمع فالنسبة اليها لا تجوز حينئذٍ على الاطلاق لانّ الاعلام اذا ثُنّيت او جُمِعتْ انقلبت الى نكرات كزيدان وعمران ومروان او زَيدون وعمرون ومروانون وهلم جرًّا فاحفظ هذا في بالك

تنبيه

جاء في كثير من المؤلفات الصرفية انه لا ينسب الى المثنى والمجموع فذهب وَهْم اكثرنا مؤخراً الى اطلاق القول في الأعلام والنكرات على السواء · ومن ثمّ منعوا أن يقال تاريخ كنائسي ونقش سجاجيدي وبَدَوات صبيانية وملبوسات نسائية الخ · اما الذين لم يطّلعوا على تلك المؤلفات وتركوا لبداهة فطرتهم فاستمرّوا على ما تمشى عليه من تقدّم اي يقولون تاريخ كنائسي وبدوات صبيانية وأُبهة ملوكية وامثال ذلك · على أنا اذا سمّينا بالمثنى او المجموع انقلب الحال فاصبحت النكرة معرفة فجازت النسبة حينئذٍ كحمداني وزيداني وكفراهيدي (جمع « فُرْهُود ») وسباعي وذئابي وأوزاعي وجزائري وكلابي الخ الخ

المختوم بهاء التأنيث صفةً

المختوم بهذه « الهاء » كومنة وكافرة لا ينسب اليه مطلقاً كما لا ينسب الى مجرّده منها ايضاً لانّ النسبة كما اشرنا هي طريقة للإخبار والنعت بما لا يصح الإخبار ولا النعت به من الاسماء الموصوفة : والصفة مطلقاً من المجرّد او المزيد ومما بني للفاعل او للمفعول ومن الصفات المشبهة او المنتقلة ، لا فرق بينها ، كلّها يخبر وينعت بها بدون واسطة : فمن العبث اذن زيادة علامة النسبة عليها · على انا اذا سمّينا بها فنقلناها عن الوصفية الى العلمية جازت النسبة حينئذٍ كحمديّ او أحمديّ

المختوم بهاء الوحدة

من اسماء الاجناس ما يأتي واحده « بالهاء[1] » كشجر وشجرة وزيتون وزيتونة وسفرجل وسفرجلة ومها ومهاة او بقر وبقرة · وهي اذا تأمّلتَ انما يُعرف ما يُعرَف عنها من خصائص وصفات انما هو من الجنس لا من الفرد · فاللون الزيتوني مثلاً نتصوره على اتمه من الجنس اي « الزيتون » لا من الواحد اي « الزيتونة » وكذلك الورق والخشب والسفرجل والمها والحمام الخ · اذن اسم الجنس هو بمثابة المعرفة اما واحده فبمثابة النكرة · ومن ثمّ فلا يجوز أن ننسب الى ما فيه « هاء » الوحدة بل النسبة هي الى اسم الجنس المجرّد منها

على أنّ لبداهة الفطرة ادراكاً خفياً دقيقاً ترى به الحقيقة قبل ان يراها العقل بالبرهان مما يسوّغ لنا في مثل « مهاة » أن نقول عُنق مَهَويّ او مهاتي او مهواتي على السواء وفقاً لاتجاه تصوُّر الناسب · وفي الوقت نفسه تَمْنَع (اي بداهة الفطرة) النسبة الى حمامة وتستكرهها مع « حمام » او « حمائم » وتوجبها مع « حمامات » جمع « حمامة » جمعاً سالماً · واليك مُستَنَد بداهة الفطرة الذي يعترف لها العقل بصحته في مها ومهوات بعد الروية وامعان النظر فنقول

إنّ أوابد السباع كالأسد والذئب والثعلب لشدّة مشابهة آحادها في

---

(١) ويأتي واحده بالياء المشددة ايضاً : كروم ورومي ، وزنج وزنجيّ ، واعراب وأعرابيّ ، وعرب وعربيّ ، وهو كثير · واذا علمت أنها أي ياء الوحدة هذه مقتطعة او محوّلة عن « هو او هي » كما سيأتي بيانه هان عليك ان ترى الواحد في روميّ وعربيّ كما تراها في حمامة و بطة و بقرة وشجرة

الخارج بعضها ببعض اولاً ولعدم الفتنا بها ثانياً يظنُّ بها لاوَّل ما تُرى انها متماثلة لا تمايُز بين فردٍ وآخر منها : ولذلك وضعوا لها اعلاماً تشمل جميع افرادها على السواء فاصبح من ثمَّ دلالة الاسم الموضوع للجنس ودلالة عَلمِه او المتصوَّر من كل منهما واحداً تصح النسبة اليه · ولذلك لا نرى ذوقنا ينبو عن قولنا زيدٌ أُساميٌّ الطلعة او أَسديُّها او أُسوديُّها ومثل أُسامة ثعالة وذؤَالة وجانبول وأنكلسام : فتقول فلان الجانبوليّ او الانكليزي وفلان الانكلساميّ او الاميركاني

اذا اعتبرت في « مها » و « مهاة » وجدت ما يصدق على الواحد من افراد الاسد يصدق على الواحد من افراد المها اي ان المشابهة بينها شديدة جداً حتى تخالها متماثلة وعليه فالصورة التي نتخيلها من « مهاة » و« مهوات »و« مها » تكاد تكون صورة واحدة : ولهذا كان المنسوب الى كل منها يؤَدي النعت اللائق بمنسوبه اي حسن العنق لتساوي كل افرادها بجماله · لكنَّ ما يصدق على « مها ومهاة ومهوات » لا ينطبق تماماً على حمام وحمامة مع انهما بحسب الظاهر من مقولة واحدة

لما كان واحد «مها» و «حمام» واحداً اي « بالهاء » وكذلك جمعهما فانه بالالف والتاء في كليهما فلا عجب اذن اذا خلناهما من مقولة واحدة : ولكنَّ بداهة الفطرة بإدراكها الخفيّ لا تسوّي بينهما في النسبة وهذا ضمناً تصريح منها بأَن ثمَّ فارق او فوارق تمنع من اجراء حكم احدهما على صاحبه · ونحن اذا امعنَّا النظر رأينا الفوارق الآتية (١) إنّ الحمام من الطيور الدواجن المألوف عندنا رؤيتها بخلاف المها فانها من الاوابد التي قلما نراها · ويترتب على

ذلك ان التشابه الذي نتخيله تاماً بين افراد «المها» لا نراه كذلك بين افراد الحمام لا حساً ولا تخيلاً (ب) انَّ لفظ المها جمعٌ لمهاة وهو خاصٌّ بالإناث دون الذكور ومثله مهوات (ولا يختلف الحكم بشيء ايضاً اذا حسبناه اسم جنس واحده مهاة) بخلاف لفظ «حمام» فانه موضوع للمذكر والمؤنث: وواحده الذي هو حمامة هو ايضاً للمذكر والمؤنث: فنقول هذا حمامةٌ وهذه حمامةٌ على أنَّ الذي نراه ونألفه هو الحمامات اي افرادٌ من المذكر والمؤنث لا يُميِّز الذكر عن الانثى الاَّ عين الخبير النقَّادة . اذن هذا الجمع المحسوس به اي الحمامات (لا اسم الجمع غير المحسوس به) هو الاولى بالنسبة اليه . وهكذا تجري بداهة الفطرة فانها تختار في الاغلب الغالب النسبة الى جمع «حمامة» وتمنع النسبة الى المفرد بتاتاً . وتجوِّز النسبة الى اسم الجنس لكن في احوال مخصوصة نادرة كأن يكون فلانٌ منقطعاً الى كش الحمام وتربيته لا مرتزق له سواه او من غواته الذين لا شغل لهم غيره فانك لو سألتَ عن مهنته لأُجيب بقولهم «حمامجي» او كشاش حمام لانه يربي العدد الكثير من الحمام الذي يناسبه اللفظ الموضوع للجنس اكثر من لفظ الجمع السالم للمؤنث

وهنا ارجع قليلاً الى مها ومهاة وجؤذُر وجاذر فإنَّ الجؤذُر لما كان يُطلق على الصغير من بقر الوحش والجآذر على جمعه اشبه من هذا القبيل «مها ومهاة» تمام الشبه فلم نتردّد من ثمَّ بداهة الفطرة أن تقول عينٌ او عيونٌ جؤذرية وجآذرية كما تقول عين او عيون مَهَويَّة ومَهاتيَّة ولفارق بين غزال وغزالة وغزلان عن مها ومهاة ومهوات وحمام وحمامة وحمامات نَسَبَتْ بداهة الفطرة الى الجمع اي الى «غزلان» في الاكثر والى المفرد اي

غزال احياناً مع شيءٍ من الكراهة كما يشعر كل منا بذوقه الخاص

واختم هذا البحث بما اعرفه من نفسي فاني كنت أُتابع بداهة الفطرة كغيري من الكتاب والمتكلمين ولكني لم افطن الى الفوارق التي تمنع ان يقاس حمام وحمامة على مها ومهاة ولا الى المشابهة الغالبة التي تسوِّغ قياس «جوءذُر وجاذر» على «مهاة ومها» إلا من عهد قريب و بعد خمسين سنة من الدرس والتفكير

أطلتُ في هذا الصدد لكن لأُبيِّن اهميَّة بداهة الفطرة ووجوب الاعتماد عليها واطراح كل رأي يناقضها أيّاً كان صاحب ذلك الراي من المتقدمين او المتأخرين . ولولا خوف الاطالة التي لا يحتملها الاَّ الافراد القليلون لكنت آتي بما لا يُرَدُّ من البينة عند ذوي الانصاف والفكرة أنَّ من تقدَّمنا عوَّلوا على هذه البداهة من غير أن يسموها باسمها هذا . وعللوا بها عن كثير مما كان يجري على السنة فصحاء المتكلمين مما شذَّ عن الضوابط والقواعد التي وضعوها . فان كنتُ بلغتُ هذه الغاية فأحسب نفسي قد قمت باعظم خدمة خدمت بها جيلي ولغتي مدة الخمسين سنة الاخيرة من حياتي . واعتقد أنَّ من اكبر مثبِّطات كل لغة (لالغتنا فقط) هو الاستخفاف بهذه البداهة التي لولاها لكانت العربية سيدة اللغات هي والعبرانية في مستوى واحد من الارتقاء ليس لها من مزيدات الافعال الدالة على اظلال المعاني المختلفة ما تراه لها الان : و به كادت تتفوَّق ، إن لم نقل تفوَّقت ، على لغتي المدنيتين العظيمتين لغة اليونان ، لغة الفلسفة ، ولغة اللاتين ، لغة السياسة والاشتراع ، . ولنرجع الان الى فقار البحث لكن بعد ان أُنبِّه على بحثين هما من صميم الابحاث السيكولوجية في اللغة

البحث الاول انواع « الهاء »

(١) هاء التانيث كمؤمن ومؤمنة

(٢) هاء الوحدة كحمام وحمامة وشجر وشجرة وزيتون وزيتونة

(٣) الهاء التي يزعمونها لتحقيق الاسمية وقد تدل على المبالغة في الوصف كنساب ونسابة وطاغي وطاغية

(٤) هاء التحديد — وهي هذه التي نراها في مثل بلدة وحجارة فانَّ الأولى كما أتخيل يَنظُر معها الذهن الى البلد من حيث هو ضمن حدودٍ حاصرةٍ والثانية يَنْظُر معها الى مجموعة افرادٍ محدودٍ مكانها مستقلة عن المجموعات الاخرى المحدود مكانها ايضاً

(٥) الهاء المتحيرة كهاء « مَعِدَه » ولعلَّها من باب المحدودة في كثير من صورها وسنعود الى بيان اصل الهاء فيما ياتي

البحث الثاني

أسماء النكرة وأسماء الجنس بماذا يشتركان و بماذا يختلفان

النكرة واسم الجنس كلاهما نكرة وكلاهما تدخل عليه « أل » وتفيد معه التعريف: التعريف الجنسي او العهدي او الحضوري · نحو « خُلِق الانسانُ ضعيفاً » و « كنّا اليوم في بيت الوالي او في دار الولاية » و « ارجوك أن تُغْلِقَ الباب وراءك » : وهلمَّ جرّاً · والنكرة قد يكون مدلولها واحداً غير معيَّن في الخارج كرجل وبالطبع حينئذٍ لا يكون له واحدٌ « بالهاء » كما لشجر وزيتون : وبينهما اي بين مثل « شجر » و « رجل » فروقٌ أُخرى وهي أنَّ واحد رجل في الخارج معرفة يُنْسَبُ اليهِ كهاشمٍ وعليّ · واما واحد مثل « شجر » اي شجرة فنكرة لانَّهُ واحد غير معيَّن في الخارج ولذلك لا يُنْسَبُ اليه بل النسبة هي الى اسم الجنس نفسهِ لا الى واحدهِ ·

ومن الفرق ايضاً بين النكرة واسم الجنس هو انَّ الاصطلاح في « نكرة » لا يُنْظر معهُ الى تداخل النكرات بعضها تحت بعض او بعضها فوق بعضٍ فلا يقال مَثَلاً نكرة لها فصل

او فُصول وبعبارة أُخرى لا يُقال نكرةٌ أعلى او ادنى كما يقال جنسٌ اعلى اوجنسٌ ادنى، ومثالهُ انسان وحيوان فكل منها يَقبَل «أل» فهو من هذه الوجهة «نكرة» ولكنَّ «انسان» من حيث هو اسم جنس، لامن حيث هو نكرة، داخل تحت حيوان فصلٌ له : وحيوان جنس أعلى لهذا الفصل : ولهُ اي للحيوان فصول اخرى غيرهُ اي غير الانسان

وفي الوقت نفسه يُحسَب حيوان فصلاً لِ «حَيّ» ونبات فصلاً آخر لهُ اي «الحي» ومن الاجناس العالية موجود ومعدوم واعلى الاجناس كما يقولون هو «شيء» و «موجود» و «معدوم» فصلان داخلان تحته . واستيفاء هذا البحث من هذا القبيل أعيا المعلم الاوّل ارسطوطاليس عن انْ يحيط به او يستوفي ابحاثهُ ولا يزال بحثاً وقفتْ دونهُ انظار معلّمي الاجيال الى اليوم حسرى دون بلوغ أقصى غاياته ولذلك على ما هو واضح لمتأمل المفكر لايجسر عقلٌ — الاّعقول بعض القاصرين المدّعي العلم — على وضع ضابطٍ كليٍّ بوجبهِ يستطيع كل واحدٍ (بشرط او على الاطلاق) أنْ يقول هذا الجنس يُنْسَب اليهِ او الى جمعهِ وذاك لا يُنْسَبُ اليهِ : او لا يُنْسَب الى جمعهِ . بل الحَكَمُ اوالحاكم الذي يُرجَع اليه في كل هذا هو بداهة الفطرة لا رايي ولا رأي مبرّدٍ اوثعلبٍ واليك ما ياتي للتمثيل على سبيل الايضاح لما نعنيه

إنّ «اخ» و «رجل» كلاهما نكرة وكلاهما يجمع . اخ على اخوة واخوان ورجل على رجال ولكنّ النسبة الى رجل ورجال منفورٌ عنها غالباً بشهادة اذواقنا وهي قلما ترد على لسان بخلاف «اخ» فانّ على كل لسان محبة اخوية والاخوانيّات ايضاً على لسان كل اديب ولم اقف على استنكارها لاحد من النقدة الذين قرأت لهم انتقادات من سنين الى اليوم . مثال آخر : «شجر» اسم جنس وواحدهُ شجرة ولا ينسب الى واحده ولا الى جمعه اي جمع واحده كما ذكرنا و «قوم» من بابه اى هو اسم جنس ايضاً ولكن لاواحد له : وجمعه اقوام والنسبة الى واحده على لسان كل اديب واما جمعه فليس من يعرّج عليه لانه نكرة محضة . ومثل «قوم» في انه اسم موضوع لمجموع «شعب» وجمعه «شعوب» وقد نسبوا الى مفرده ولامر ما ادركته بداهة الفطرة نسبوا الى جمعه ايضاً فقالوا «وكان الجاحظ شعوبياً» ولم يُنسب ولا يُنسب الى «اقوام» اصلاً فتامل . والتعليل عن ذلك يصعب فهمه على كثيرين ولعلّ ذكره اصبح من قبيل التطويل الذى لا حاجة بنا اليه بعدُ . ولكننا نذكر للطالع ما نتركه ايضاً لبداهة الفطرة لصعوبة التعليل عنه . وهو انهم

ينسبون الى حيوان ونبات وهو معروف وقد ينسبون الى حيوانات ونباتات قليلاً والى حشايش دون حشيش كثيراً . و ينسبون الى حيّ ولكن لا ينسبون الى جمعه اعني احياء مطلقاً . و كذلك موجود ومعدوم وجمعهما موجودات ومعدومات فانه لا يُنسب الى شيء منها على الاطلاق . واغرب ما يكون انه لا يُنسب الى «شيء» مع انه اعلى اسماء الجنس ولا الى جمعه ايضاً مطلقاً . وقد ادركت بداهة الفطرة ذلك فمن ثمّ لم نسمع من على لسان نسبة الى شيء او اشياء مطلقاً . والسبب العقلي هو لأن «شيء» انكر النكرات ومثله جمعه ولا ينسب الى النكرة اذا لم تفد افادة ما . ولا تحصل افادة من نسبة الا اذا كان المنسوب اليه معروف بوجه من الوجوه ولو بعض المعرفة لمسوّغ ما . ولنعد الان الى قار الموضوع ولنبدأ بما ترى

تاريخ كنائسيّ ام تاريخ كَنَسيّ

جاء في المعروف عندنا من كتب الصرف انه لا ينسب الى مثنى او مجموع . ولكنّ هذا كما بيّنّا خاص بالاعلام على الاطلاق لا بالنكرات المجموعة . فزعم بعضٌ او كثيرٌ من ادبائنا الحاليين أنّ هذا القول جارٍ على اطلاقه و بناء على زعمهم هذا نسبوا الى كنيسة دون كنائس وزعموا فوق ذلك أنّ كنيسة وحنيفة في ابي حنيفة و بني حنيفة هما مثلان او من باب واحد . ومعلوم ان قد جاءَ في ما نقل الينا نظير العبارتين الآتيتين «المذهب الحنفي وعليّ ابن هوذة الحَنَفيّ» الاولى نسبة الى الامام ابي حنيفة والثانية نسبة الى بني حنيفة . وذهب عن بالهم انّ «الهاء» في كنيسة ليست كالهاء في حنيفة ولا اللفظتان مثلين بل ليستا من جنس واحد ليصح اجراء حكم النسبة في احداهما على حكمها في الاخرى و بيانه أنّ «الهاء» في «كنيسة» هي للوحدة واما في «حنيفة»

فللتأنيث : و كنيسة نكرة وحنيفة علم للقبيلة · وحنيفة لفظ عربيٌّ اصيل واما كنيسة فمنقول عن العبرانية او عن السريانية عن العبرانية · واللفظ الاوّل لا يجمع او على الاقل لم ينقل له جمع في معجم لنا ولا في كتاب ادب نعلمه ولا يطوع به لسانٌ ايضاً على ما يشهد به حسنا او بداهة ذوقنا · ومع كل هذه الفوارق فكثيرون الان يتهافتون على هذه النسبة كأنهم وجدوا ضالّة او جوهرة من جواهر اللغة التي لا تقوَّم بثمن · والغريب انّ معظم هولاء الادباء هم من الذين يزعمون في انفسهم انهم من المتجددين والمحافظين معاً

ولا بدّ لي هنا من امرين · (اولاً) تذكير هولاء الادباء بما كان ينبغي ان يفطنوا اليه هم وهو انهم اي الاولين عدلوا الى حنفيّ في النسبة الى القبيلة للتمييز بين المنسوب اليها والمنسوب الى الدين الحنيفيّ وسنشير الى هذه الاسماء المعدولة على خلاف الاصل فانها الفاظ لا تصل الى عدد اصابع الكفّ الواحدة واشهرها ثقفيّ · (ثانياً) أنّ اوّل من عدل ممن نعرفهم الى استعمال كنسي بدلاً من كنائسيّ هو القس لويس صابونجي انتصر هذا القس للعلامة المرحوم السيد يوسف داود على العلامة المرحوم المطران يوسف الدبس فزعم القس المومى اليه ان المرحوم يوسف الدبس قد اخطأ في قوله تاريخ كنائسي يريد التنقُّص من علمه لكنّ كثيرين انكروا حينئذٍ بشدة انكار القس الصابونجي ومن جملتهم الاستاذ الكبير المرحوم ظاهر خيرالله · رحم الله الجميع · ولكل رأيه المُخلَص فيه لله وللعلم والاولى اتباع الحقيقة متى عرفت لا متابعة المشهورين من كانوا واياًّ كانوا

وآخر ما اذكره مما حملني على عقد هذا الفصل · هو اني وانا افكر في

موضوعي هذا وصلتني مجلة السيدات والرجال (جزء مايو) السنة السابعة لكاتبنا الاجتماعي الكبير المعروف السيد نقولا حداد وحالما فتحتها وقعت عيني على رواية «لا تعبدوا ربين الله والمال» وقد كتب في اعلاها «رواية ملائكية» بسائق بداهة فطرته. والسيد المومى اليه من خاصة الادباء والكتاب ومع ذلك وافقت بداهة فطرته بداهة الفطرة العامة وعليه فأنا ارجو عموم الادباء ولا سيما اولي الغيرة منهم على اللغة ان لا يستخفوا بهذه البداهة وان يعتمدوها دون مهوّشات بعض القواعد الصرفية التي لم يعتمد فيها على الرويّة العقليّة ولا استَنَدَت الى الاستقراء المُسْتَوْفى

المنسوب الى الجمع

والتعليل عن صحة النسبة فيه واليه

اذا سألتَ مَن سألتَ ما صناعة زيدٍ مثلاً اجابك على البديهة و «ببداهة الفطرة». صناديقي، ساعاتي، توابيتي، عرباتي، اتوناتي، بواريدي، صاياتي، جبي، جواهري او مجوهراتي، مخللاتي، بزوراتي، فوانيسي، جلالاتي، مراياتي، معللاتي، مكبساتي، زنانيري، حكاياتي، فواكهي، برادعي، سرُوجي، جرائحي، الى عشرات مثل هذه الالفاظ

التعليل عن صحة هذه البداهة

لما كان الرجل المساول المسؤول عن صناعته كما اشرنا او مبيوعاته لا يصنع او لا يبيع افراداً متماثلة ومن نوع واحد من الصناديق والساعات انما هو يصنع او

يبيع افراداً من انواع متعددة مختلفة في شكلها ومقاييسها . ولما كانت اللغة للعبارة عن مدركاتنا المحسوسة على ما نشعر بها بحواسنا فمن الضرورة اذن ان نجيب وفقاً لما شاهدناه . والذي شاهدناه كان الصناديق لا الصندوق والساعات لا الساعة وهلمّ جرّا فلا جرمَ من ثمّ ان يكون جوابنا صناديقي او ساعاتي فتأمل واحكم لنفسك فيما اذا كنت تستطيع ان تقول غير ذلك . ونحن نسألك هل سمعت غير ذلك ؟ ثم نحن اذا نظرنا من موقف المعرفة والنكرة او من موقف الأعم والاخص وجدنا ان نسبة صناديق الى صندوق كالمعرفة الى النكرة او كالاخصّ الى الاعم . ولما كانت النسبة لا تكون الاّ للمعرفة او ما هو بمنزلتها او للاخص وما هو بمنزلته لتحصل الفائدة اذن فالنسبة ينبغي ان تكون الى صناديق لا الى صندوق ، ومن لا يرى من نفسه ان الماهيّة وهي مدلول اسم الجنس او المعنى المشترك بين كل افراده في الخارج تجرّد من الافراد لا من الفرد الواحد لا نستطيع نحن ان نريه ذلك ولا نستطيع ايضاً ان نجعله يرى ما نراه ويسلم بصحته اي ان لفظ الجمع أوضح صورة في الذهن من لفظ المفرد . كرجل ورجال وصندوق وصناديق وهذا بمثابة قولنا « اعرف » اذن فالنسبة اليه لا الى المفرد . وهناك موقف آخر غير الموقفين المارين يحتم علينا بعد الروية بترجيح جانب النسبة الى الجمع على جانبها الى المفرد بل يحتم علينا وجوب ذلك واليك البيان

قلنا اولاً انا اذا سألنا من سألنا عن صنعة « زيد » مثلاً يجيب على البديهة صناديقي او ساعاتي الخ . فلنغير بعض الفاظ السوال ونقول « ماذا يشتغل زيدٌ » او « ماذا يبيع » والجواب لا يكون الاّ بلفظ الجمع اي صناديق او ساعات لا

بلفظ المفرد اصلاً · وما اظن واحداً يحاول ان يأتي هنا بلفظ المفرد : وان كان هذا الواحد من اغتام الغمارة الفاسدي الفكرة والنطق معاً فانّ لسانه يطوعه في ذلك

مَطلٌ آخر

إنّ المتخصص او الموكول اليه امر صندوق محل تجاري يسمونه صندوقجي المحل او امين الصندوق بلفظ المفرد · ولو فرض أنّ احدهم قصر همه او عمله فقط على اصلاح ساعة بلدية بيروت مثلاً او ساعة الجامعة الاميركانية في تلك المدينة لا يعرف له عملٌ غير ذلك وسُئِلْتَ عنه ماذا يعمل لأُجبتَ على الفور : يصلح ساعة البلدية او ساعة الجامعة او ساعتجي احداهما بخلاف ما لو كان يصلح الساعات ان للاماكن او للاشخاص فانك تجيب حينئذٍ بقولك يصلح ساعات او ساعاتي فتدبر · كل ذلك يَندفعُ اليه بيداهة الفطرة عامة المتكلمين ومن جملتهم تسعة وتسعون من علمائنا وادبائنا الافاضل المجددين والمحافظين

إنَّ هذه البداهة — بداهة الفطرة او بداهة الذوق العام — لا يجوز ان يستخف بها : والاستخفاف بها استخفاف بالذوق السليم العام ومن ثمّ هو استخفاف بالعقل المطبوع وتشبُّع بل ادعاء اقدم مَن اقْدَمَ عليه في اوج السيادة العربية بعض افراد من الانباط او السريان او اليهود الذين كانوا ارسخ قدماً في علوم تلك الازمان وفلسفتها من معظم جند الفاتحين الاعراب او من عمال الخلفاء وكان معظمهم من رؤساء الاعراب ايضاً الذين لم يكن لهم ما يفخرون به الاّ لغتهم التي نزل بها القرآن ومع انّ تعليلات هولاء الايمة العظام (وكانوا

كذلك في زمانهم) في فلسفة اللغة وعلومها الخاصة على ما هي مدونة في مؤلفاتهم قد اصبحت الان عند معظمنا مضرب مثل في السخافة والتفاهة مع ذلك لا يزال بعض من الذين نُجِلّهم ونجلّ ادبهم وعلومهم يذهبون مع القدم ويزعمون انهم اذا لم يتابعوا هولاء الايمة حذو القذة بالقذة لا في القواعد والضوابط اللغوية على تعدد انواعها فقط بل في اسلوب كتابتهم وفي مفردات[1] الفاظهم من اسماء وافعال واسماء افعال وحروف جرّ لا يحذفون حرفاً ولا يغيرون وارداً شعرةً عمّا هو مدون في المعاجم التي بين ايدينا ادّى بهم ذلك (اي عدم هذه المتابعة) الى القضاء على كيان اللغة او على الاقل الى فساد بلاغتها المشهورة وتشويش اساليبها الساحرة بما يردُّها الى مثل اللغة المالطية وكفى بذلك فساداً . انا لا اوافق هولاء الافاضل على ما زعموا لانهم لا يستندون فيه على المبدا السيكولوجي المشهور اي « قياس النظير على النظير » وبيانه (١) ان المالطين قوم محصورون بالنسبة الى المصريين والسوريين والعراقيين ومن يتصل بهم من صميم البلاد العربية (٢) يقال إن المالطين هم من بقايا البربر[2] فاذا صح ذلك فلغتهم اذن في ذات اصلها خليط غلبت عليها الاصول السامية كما كانت عليه لغات شمالي افريقيا . تونس[3] والجزائر وطرابلس الغرب ولا شك ان اهل تونس المدينة

---

(١) راجع المزهر مجلد اول صفحة ١٠٣—١٠٥ فانه فصل يستحق المراجعة

(٢) ولعلهم من اللبنانيين الشماليين الذين هربوا مع الصليبين مخافة نقمة المسلمين في تلك الايام (٣) تونس البلاد وتونس المدينة وهي قرطاجنة المدينة الصورية المشهورة قديماً

الصورية استعمروا مالطة قديماً باقوام من بيوتاتهم التجارية وما زالت لغتهم لغة التونسيين والدم الغالب فيهم دم هؤلاء ايضاً. ثم اصابهم اثناء الفتوحات العربية الاسلامية ما اصاب كلّ بلدان البربر على شواطئ المتوسط من طرابلس الغرب شرقاً الى بوغاز جبل طارق غرباً. ثم لما غُلب العرب على امرهم انقلب محيطهم الى غير ما كان عليه تماماً فاصبح محيطاً لاتينياً ايطالياً في كل ما لم يكن في جزيرتهم قبلاً. ومع ذلك لم تفسد لغتهم عما كانت عليه بل حفظت ما كان فيها من فصيح مفرداتها العربية وتراكيبها البليغة وارتقت الفاظها البربرية واللاتينية الدخيلة فزال عنها شيء من خشونة مسحتها الى نعومة ما تأصّل فيها من العربية إنْ في اللفظ او التركيب فاصبحت لغة تقوى ان ينقل اليها كل الاسفار المقدسة عندنا بل اصبحت لغة جرائد وتاليف بل لغة علم وادب ومدارس كلية كمعظم كلياتنا في مصر والعراق وسوريا. ومما يسمعه كثيرون منا ويدهشون عند سماعه هو صوت بعض بحارة البواخر الانكليزية وهو بين آلات الباخرة يقول — انظر بعينك ولا تلمس بيدك

ومن زجلهم على ما يحفظه شاعرنا المطبوع عبد الرحيم بك قليلات ترُيدوا تبِيدوا قرّاقين. وترجمته -- تذهبوا وتهلكوا يا خداعين: اللفظة الاولى «ترُيدوا» من راد البلاد يرودها والثانية «تبِيدوا» من باد يبيد والثالثة قرّاق اسم فاعل صفة مشبّهة من قرق بمعنى خدع. ولا يخفى على المتفطن ان المضارع في زجلهم هذا هو للدعاء على ما هو عندنا كقولك رحم الله فلاناً ويرحمه. فانظر واحكم بعد هذا لنفسك. ان بداهة الفطرة التي حمت لغة قوم كالمالطيين فارتقت بارشادها حتى صارت بين اللغات التي تنشر فيها الجرائد

والمجلات وتترجم اليها اعظم الاسفار التي كتبها كتاب كثيرون وفي قرون مختلفة ولغات مختلفة لا يصح مطلقاً ان ينسب اليها اي بداهة الفطرة الغفلة في المستقبل عن لغة كالعربية ارتقت بها في الماضي حتى بلغت في مزيدات افعالها وسائر مشتقاتها الاسمية والفعلية مرتقى لم تبلغه اعظم لغة علم وفلسفة في الماضي او لغة علم وادب واجتماع في الوقت الحاضر . وهنا اختم استطرادي بان اذكّر هؤلاء الادباء الافاضل ان العربية بلغت عصرها الذهبي عند ظهور الاسلا بيداهة الفطرة لا بالقواعد والضوابط التي وضعها لها مؤخراً اناس اغلبهم إن لم اقل جميعهم من غير ابنائها بل من ابناء أمائها او من ابناء عمها الابعدين ولم يكونوا في بعد نظرهم وصحة منطقهم كارسطو او كفلان وفلان من كبار لغويي اليونان والرومان . وشاهدنا المصدِّق مدّعانا هو ما نعرفه عن آرائهم المتناقضة وتعليلاتهم السخيفة على ما نراها في مؤلفاتهم او في المنقول عنهم . وازيد فاقول إن اعظم كتَّابنا وابلغهم كتابة وابرعهم فضلاً وعلماً وذكاءً لم يتقيدوا باراء هولاء الاعلام من علماء الصرف والنحو واللغة كما يريدنا بعضهم الان فعربوا او نقلوا كثيراً من الاسماء الاعجمية الموصوفة اعلاماً ونكراتٍ واودعوها في مؤلفاتهم العلمية والطبية والنباتية والصناعية والسياسية والدينية ثم اشتقوا منها افعالاً واشتقوا من الافعال هذه صفات واشتقوا من المجرّدات مزيدات لم يعتمدوا في صحة الاشتقاق الاَّ على بداهة فطرتهم بشرط القرينة الدالة على ما ارادوهُ . فمن النيروز أشتقوا نَوْرز او نَيْرَز ومن مرزبان مرزَبَ وتمرْزَبَ . ومن دمشق تدمشق ومن بغداد تَبَغْدَدَ كما اشتقُّوا تنزَّر من نزار وأعرق من العراق وأصبح من الصباح واثمرت الشجرة من الثمر وتقيَّأ من

الفيء واستظلّ من الظِلّ وتذرّى من الذُروة · واشتقوا احياناً من الاسم الجامد من غير ان يعرّجوا على الفعل فقالوا مأسَدَة من الاسد ومسبعة من السبع ومقبرة في الراجح من القبر وأصدرَ من الصدْر · نعم هذا قليل الورود بالنسبة الى ما ورد من الافعال المشتقّة ولكنّ بداهة الفطرة لم تغفل عن هذا القليل في الماضي ولا تغفلهُ في المستقبل بشرطها الذي اشرنا اليه مراراً · وفي ما ذكرنا كفاية · ومن دقيق ادراك « بداهة الفطرة » ما سنبيّنهُ في اختيارها · جرائحي (دون جَرّاح او جِراحي) مبالغة لكمال الموصوف بها بصفة كونهِ جرّاحاً واليك ذلك

جاءَ في محيط المحيط -- الجرّاح الجِراحيُّ -- وجاءَ فيه ايضاً الجِراحة الجَرْح جمعها جِراح · والجراحة عند الاطباء تفرُّق اتصال اللحم من غير تقيُّح يسمَّى قرحة · الجراحيُّ الذي يعالجُ الجراح وصنعته الجراحة والعامَّة تقول جرائحيّ للفرد وجرائحيَّة للجمع

فهذه ثلاثة الفاظٍ ، جَرّاح · وجرائحي · وجراحيّ · بمعنى واحد إلاَّ ان اللفظة الثانية هي من استعمال العامة كما ينص محيط المحيط صراحةً · فلننظر ايُّ هذه الالفاظ يحكم لها العقل ؟ التي اختارها متأدبونا وكُتَّابنا وترفَّعوا عمَّا يسمونه لفظاً عامياً ام ما اختاره عموم المتكلمين ولنبدأ بجرّاح اولاً

جَرّاح

اما جرّاح فمعناهُ وفقاً للاشتقاق « الكثير الجرح » ككذَّاب للكثير الكذب وقتّال وعضّاد ونهّاش ونبّال وما الى ذلك · فانظر الى الفرق البعيد بين المعنى المراد وبين المعنى اللُغوي مما لا يجوز معه استعماله الاَّ على كُرْهٍ

لبعد الكناية او الاستعارة فيه ، او بناء على القول المعروف : ان لا مشاحّة في الاصطلاح

جِراحي

لا غبار على هذا الاصطلاح فانطباق المعنى المراد به على المعنى اللُغوي ظاهر كل الظهور . ومعناه المشتغل بالجراح اي مُداويها ومُعالجها كالساعاتي والسيوفي والمحامليّ مثلاً للمشتغل بالساعات والسيوف والمحامل إصلاحاً او صناعةً او بيعاً

الاّ ان العامة تركوا « جراحي » الى جرائحيّ . فهل لتفضيلهم هذا من سبب وهل لبداهة فِطرتهم ما يسوّغ ذلك مع الافضلية ؟ لننظر في ذلك

الجراحة [1] اسم بمعنى جُرْح وجمعها جرائح كحبائل وحمائل وسحائب والجراح ايضاً جمع جراحة بمعنى جُرْح وعليه فجراحي وجرائحي كلاهما نسبة الى الجمع الاّ ان « جراح » جمع قلّة و « جرائح » صيغة منتهى الجموع ومن المسلَّم ان من يداوي انواع جراحاتٍ اكثر من صاحبه هو الابرع والأولى ان يتوجه اليه النظر ايضاً

وأزيد فأقول انه من اوليّات البلاغة المسلَّم بها أَن كل لفظين بمعنى واحد واحدُهما اكثر مقاطع من صاحبهِ يُفضَّل في مقام الانفعالات اختيار اكثرهما مقاطع لأنَّا نستطيع ان نُودِع فيه من غنَّة الصوت الطبيعية ما لا يتهيَّأ إيداع

---

(١) جاء في اللسان — والاسم الجُرْح والجمع اجراح وجُروح وجراح . وجاء والجراحة اسم الضربة او الطعنة والجمع جراحات وجراح على حد دجاجة ودجاج فأَمَّا ان يكون مُكَسَّراً على طرح الزائد وامَّا ان يكون من الجمع الذي لا يفارق واحدهُ الاَّ بالهاء

مثله في الآخر ففي لفظ « جرائحي » إذن نستطيع ان نودع في غنَّة الصوت الطبيعية من مزيد الاعجاب والمدح ما لا نستطيعه في « جراحي » وهذا ما يُشعَرُ به بالحسّ . والمحسوس لا يحتاج الى دليل . فاحكم اذن بنفسك لنفسك ولا تذهب مع دليل القِدَم . ولا بدَّ لي من ان ادعم كلَّ ما ذكرتهُ عن هذه البداهة بالبرهان الآتي . وقد ذكرني اياه ما جاء في الحديث عن الرسول وهو قول حكمة وفكرة لا ارى أبْلَغَ منه ايجازاً ولا اصدق قولاً وهو « كلُّ العلم عند كلِّ الناس » : ووفاقاً له اقول إنَّ كلَّ العلم عند كل المشتغلين بهِ : وأَغْلبُهُ عندَ أَغلبِهِم . ولما كان كل فرد مفكرٍ من الناس يشتغل بعلم التعبير عمَّا في نفسهِ كان كل هذا العلم عند كل الناس . وبالضرورة أغلبُهُ عند أغلبِهِم . اذن فهذا الذي يجري على عموم الألسنَةِ ببداهة الفطرة هو الحريُّ بالاتِّباع لا رأيُ الفرد المبنيُّ على التسرُّع والاستقراء الناقص كما اشرنا مراراً فيما مضى

ان كنتُ وفيتُ في كل ما مرَّ ببيان اهمية بداهة الفطرة العامّة (اي ما يجري على عموم الألسنة) ووجوب متابعتها ولا سيَّما اذا شملت هذه البداهة قُطرَينِ او اكثر من الاقطار العربيَّة فحسبي ذلك . واحسب أني قد قدَّمتُ اعظم خدمة للغة العربية في أيَّامنا هذه بأَن أطلقتها من عِقالٍ عقلها به بعض مُحبّيها الذين يزعمون أن أحكام بعضهم المُتسرّع فيها والمبنيَّةَ في الوقت نفسه على حضور بعض ما هو محفوظ في تلافيف ذاكرة الفرد الواحد هي اولى ان تُقدَّم على حكم بداهة الفطرة المبنيّ على حضور ما هو محفوظ في تلافيف ذاكرة الأجيال الكثيرة مُشذَّباً من النواتيء التي تعيق الفكر عن القياس الصحيح ومن ثمَّ عن حسن وضع الشيء في موضعهِ

وَليُعلَم أن صحة الحكم العام تتطلب عدّة مقوّمات من اهمها

(١) شمول الاستقراء جميع الجزئيَّات التي يترتَّب عليها الحُكمْ

(٢) ان يُعطى مجالٌ للرويّه والفكر قبل اصدار الحُكمْ

(٣) ان تكون النظريَّات الضروريّة لصحة الحكم خِلواً من الاوهام والاعتقادات التي لا تثبت على مِحكّ النقد وإعمال الرَويَّة

(٤) ان لا يصادِمَ الحُكم بداهة الفطرة العامَّة وهي التي تعبِّر عنها بالذوق او الذوق السليم. فاذا صادمها فالأَولى اتّباع بداهة الفطرة هذه واطِّرَاح حكم الفرد جانباً كائناً من يكون . ولا بدَّ لي من الملاحظة الآتية : وهي ان بداهة الفطرة العامة هي غيرُ الرأي او الفلسفة التي تسلِّم بها العامّة وتقبلها من بعض الافراد من غير ما جدَلٍ اصالةً . لان اللغة من حيث هي وسيلة لايصال ما في النفس الى فهم الغير اقتضتْ ضرورة ان يكون الاشتغال بها عاماً عند كل الافراد وذلك يقتضي حتماً ان يكون هناك بداهة فطرة عامَّة وليس كذلك الرأيُ او الفلسفة التي تسلِّم بها العامة . ولا يشكُّ المتأَمّل أيضاً ، ان بداهة الفِطرة لا تثبت أَحكامُها على حالة واحدة بل هي تتغيّر بتغيُّر المحيط فاذا استمرَّ هذا على حالهِ ثبتت هي على ما كانت عليه تختار ما كانت قد اختارتهُ . واذا تغيَّر بعضَ التغيُّر او كُلَّهُ تغيرت هي كذلك أيضاً تبعاً لهُ فاختارت وفقاً للمحيط الذي استجدَّ

وأَزيدُ تذكاراً كما لا يخفى على مفكرٍ وقد اصبح من المُسلَّمات العامَّة أَيضاً وهو ان اللغة قبل ان تُجمع وتُدوَّن تكون اسرع في التغيُّر والتكيُّف بما يستجدّ في المحيط ممَّا بعد جمعها . فاذا جُمِعت ودُوّنت واستمرَّ محيط

المتكلّمين بها على ما هو عليه استمرّت على مثل ما جُمعت ودُوّنت واصبحت اشبه شيءٍ بالمومياء تُحفظ في توابيت كُتُبِ اللغة التي أُودِعت فيها لا يعتورها التغيير كما لا يعتور تلك . أمَّا اذا تغير المحيط واستمرّت هي على ما كانت عليه لا يخرج اللاحق عن السابق في شيءٍ فاندب اهلها فانهم اموات . فان وجدتَ فيهم علامة حياة تدلُّك ان سُكوتهم كان غشية غريقٍ عرضت فأعمدْ في ايقاظهم الى ما يُعْمَد اليهِ في اعادة الغريق . ولكن لا تعلِقهم بأرجلهم كما كانوا يفعلون قديماً بل ترفق بحالهم فانهم من عَبَدة الآباء كالصينيين لا من عَبَدة برهما اي من صنف الخدمة واهل الصناعات المُستعبَدين

بحث في اسم الجنس كرجل

اسم الجنس نوعان اسم جنس جمعي واحدهُ بالهاء كزيتون وزيتونة وحَمام وحَمامة وقد اشرنا الى الفرق بين زيتون وزيتونة وحَمام وحَمامة فإنّ الاول واحدهُ مؤنث مجازي توهُّماً وأما واحد الثاني فيجوز أن يكون مذكَّراً او مؤنثاً فتقول هذه او هذا حمامة ولا تقول إلاَّ هذه زيتونة لا يجوز غير ذلك ومِمَّا الى اسم الجنس اسمُ « الجمع » او الاسم الموضوع لمجموع « كقوم » فانه موضوع لمجموع من الرجال والنساء فيقول الرجل انا من تميم وقومي تميم وكذلك تقول المرأة . على أنّ جانب الرجل مغلَّب على الأرجح عند الإطلاق . وتغليب المذكر على المؤنث معروف حتى في المتميز فيه ما هو للمؤنث عمَّا هو للمذكر وشاهدُه الآية وكانت من القانتين غلَّب ما هو خاصّ بالمذكر على ما هو خاصّ بالمؤنَّث . واذا صحّ هذا التغليب فيما لكلّ منهما صورة خاصة به فبالأولى ان يصحّ فيما هو مشترك بينهما

النوع الثاني من اسم الجنس كرجل وصبيٍّ مثلاً موضوع لواحدٍ من أفرادِهِ غير معيَّن لا في الذهن ولا في الخارج وموضوع أيضاً للماهية المشخصة في الذهن من الافراد في الخارج . فرجل مثلاً لمَّا كان يدلُّ على واحدٍ غير معيَّن من الافراد التي في الخارج صحَّ ان يكون ذلك الواحد زيداً او عمراً او بكراً ومن زيد وعمرو وبكر الخ تتجرَّد الماهية المدلول عليها بلفظ رجل ومثل رجلٍ صبيّ وامرأة

ولما كانت دلالةُ هذا الاسم مزدوجةً من الوحدة والماهية كانت دلالتهُ على الماهية دلالة مشتركة ، فهي اذن دلالة مضطربة ولا بدَّ لها من قرينة واضحة تعيّن المعنى المراد منها كقولهم في التمثيل النحويّ جاءني رجلٌ لا رجلان وكقولهم عندي او زارني رجلٌ لا امرأة . ولا رجلَ [1] في الدار . اذا عرفتَ هذا قلنا انَّ اسم الجنس من حيث دلالتهُ على الوحدة هو نكرة محضة والنكرة المحضة لا يُنْسَب اليها لعدم الفائدة امَّا من حيث دلالته على الماهية فقد مرَّ بنا انَّها دلالة مشتركة مضطربة . ولذلك كانت دلالة الجمع عليها اوضح من دلالة المفرد ؛ فالجمع اذن أعرف من المفرد فهو من ثمَّ اولى ان يُنْسَب اليهِ دونهُ اي دون المفرد . وهكذا جاءت بداهة الفطرة فانَّهم نسبوا الى رجال جمع رجل والى رُجَّال جمع راجل . ولم تقف بداهة فطرتهم عند هذا الحدّ بل تجاوزتهُ الى « رَجَّال » صيغة مبالغة اشتقَّتها راساً من الاسم (رَجُل) بدون ان تعرّج على الفعل لظهور المعنى جلياً من غير ادنى التباس وهذا كثير الوقوع في اللغة

---

(١) وهي دلالة وضعية قال بها النحاة ولا بأس بها

ومنصوص عليه من بعض الاعـلام المتقدمين الذين فطنوا اليه · كل ذلك لظهور المعنى جليًا من غير ما التباس

واذا سلمنا انَّ رَجَّال باشتقاقه من رجل دالٌّ على معناه و بصيغته مقيّد له بقيد القوّة والشدّة فهو اذن اخصّ منه فهو اذن اعرف · وبعبارة اخرى هو معرفة عند الاطلاق بالنسبة الى رجل عند الاطلاق فلذلك هو اولى اولوية وجوبية أنّ يُنْسَب اليه دونهُ اي دون رجل بل هو اولى بان يُنْسَب اليه من الجمع ايضًا ولذلك اختارتـه بداهة الفطرة · هذا اذا اعتبرنا وجهة الاخصّ والاعمّ · ولكن هناك اعتبار آخر يؤدّي الى هذه الاولوية · وهو اعتبارنا القوّة واعتبارنا الاقوياء واعتدادنا بكل ما يُنْسَب اليهم : فثيابنا اذا اشبهت ثيابهم وهمّتنا اذا اشبهت همّتهم بـل اصواتنا اذا اشبهت اصواتهم حَسِبنا كل ذلك فخرًا · وعليـه فنحن نقلدهم في كل ظاهرة نستطيع تقليدهم فيها من ظواهرهم الخارجية إنْ في لباسهم او مشيتهم او حركاتهم او اصواتهم ونظراتهم وبناءً على ما نراه راسخًا فينا من تقليد الـكبرا والاشدّاء يندفع التاجر ببداهة فطرته فيقول في اعلانـه — اذا تُرِكَ لهذه البداهة — « وردنا مؤخرًا ثيابٌ رَجَّالية على اختلاف اجناسها تناسب الـكبرآء واهل الذوق » علمًا منه أنّ ذلك من اعظم المرغّبات فيها

على أنَّ كلّ ما قدّمناهُ لا يعني وجوب اختيار او تفضيل صيغة فعال منسوبًا اليها « ببداهة الفطرة » صورة الاضافة [1] الى الجمع فنقول « هذا فعل

---

(١) الاضافة تفيد التخصيص او التعريف والنعت يفيدهما ايضًا والذوق او بداهة الفطرة تعيّن لكلٍّ منهما مكانه اللائق به

رجال » — لا فعلٌ رَجَّاليٌّ ولا رُجَّاليٌّ او رِجالي . فاعتمد هذه البداهة العامة لا على احكام بعض افراد يعتمدون على الاستقراء الناقص او على ما يحضر في اذهانهم في الحضرة من شواهد اللغة ولو كان ذلك البعض بمنزلة سيبويه والكسائي او بمنزلة يونس والخليل . ذلك اذا صادمت احكامهم ما هو شائع على الالسنة ولا سيما اذا كان ذلك الشائع متعارفاً عند غير قطر من الاقطار العربية

ولنتقدم الان الى الكلام في النسبة الى الاعلام المختومة بهاء التأنيث او الوحدة بعد ان نمهد له ببيان اصل هذه الهاء والتحوُّلات التي انقلبت اليها مع الايام

النسبة الى الاعلام المختومة بهاء التأنيث كفاطمة او بهاء الوحدة كطلحة

وفيها اربعة ابحاث نحتاج اولاً الى تقريرها وهي الآتية :

(١) لماذا قلنا هاءَ التأنيث وهاء الوحدة ولم نَقُل تاءَها ،

(٢) لماذا قلبتْ تاءً وما السبب الداعي الى قلبها والشروط المسوِّغة له ،

(٣) ما هو اصل هذه الهاء ؟

(٤) هل نشأَ عن هذا الاصل مع الايام متولِّدات يمكن لنا تَتَبُّع حلقاتها في سلسلة لا تزال محفوظة على ألسِنَة المتكلِّمين وفي آداب المتأدّبين من الشعراء وكبار الكُتَّاب الى اليوم ؟

البحث الاول

قلنا ونقول انها هاءٌ لان علماءَ لغتنا الاعلام قديماً وحديثاً اجمعوا على ذلك وصرَّحوا به خَلَفاً عن سَلَفٍ · ووافق إِجماعُهم وتصريحُهم هذان أنها في الوقف بدون استثناءٍ تلفظ هاءً لا تاء في كلِّ البلدان العربية — والوقف في اللغة هو الأَصل بإِجماع الرأْي ايضاً)

ويعضدُ ما مرَّ من إِجماع المتكلمين على لفظها هاء و إِجماع جُلِّ عُلمائِنا الأَعلام ايضاً ان اصلها كذلك اتفاقُ رأْي الثقاة من المشتغلين بعِلْمِ مخارجَ الحروف المتقاربة المقاطع على ان الهاءَ قد تُقلَب تاء إِما رأْساً او بعد قلبها همزة (راجع المزهر جلد اول· النوع الثاني والثلاثين)

البحث الثاني

لماذا قُلِبَت او تُقلب تاءً الخ ؟

وجواباً على هذا نقول · اذا تقاضانا غرض من محافظة على وزن او قافية او حُسن رصفٍ الى تحريك هذه الهاء ولم يكن ثمَّ التباسٌ قلبناها حينئذٍ تاء لسهولة النطق او لحسن الوقع في السمع كقولنا رحمةُ الله خيرٌ وأَبقى و كقول الشاعر

انارةُ العقل مكسوفٌ بطوع هوًى وعقلُ عاصي الهوى يزداد تنويرا

فان الفرق بشهادة الحس اوضحُ من الصُبح بين حُسنِ وقعها في السمع

ملفوظةً تاءً ووقعها فيه ملفوظةً «هاء» او ألفاً بين المقصورة والممدودة (١) فجرب ذلك بنطقك واستشهد حسك . ولا يبرح من بالك أنَّ سهولة النُطقِ وحسنَ وقع الالفاظ في السمع هما من مطالب بداهة الفطرة في اللغة كما أن من مطالب العقل والبداهة فيها أيضاً منع الالتباس وتجنب التعقيد . واذا كان ذلك من مطالب العقل والبداهة الفطرية فلا تَخَفْ بعدها من التشويش في اللغة ولا من انحطاطها الى الغثاثة العاميَّة واختلاط الحابل بالنابل فيها . ففصحاء كلّ لغة وأُولو الفهم العالي والذوق المهذَّب الراقي لهم لغتهم التي تُناسب درجة فهمهم وحسن ذوقهم . وللأَغتام والخشارة لُغتهم المُشَوَّشة المنحطَّة التي لا يستطيع الفريق الأَول منهم أن يتدهده منحطّاً اليها كما لا يستطيع هؤلاء ان يتطالوا الى فهم لغة الفريق الأَول المعبرة عما يجول في مدركاتهم السامية وتخيلاتهم الجميلة الراقية . وان كُنتَ في ريبة مما نقول فاسأَلْ عنه الثقات من علماء اللغة الالمانية او الفرنساوية والانكليزية ارقى اللغات الاوربية في الوقت الحاضر فانها لغات تطوَّرت واتَّسعت في سائر مناحيها بعد القرن الثالث عشر بارتقاء عقول اهلها واتساع مداركهم واختباراتهم ومخالطاتهم الامم والشعوب الراقية والمنحطة

---

(١) لان الحركة المشبعة سواء كانت فتحة او كسرة اذا استندت الى «ال» أُطبِقَت أي تُرك اشباعها دائماً . فلو قلنا إنارى العَقْلِ لَفَقَدْنا الوزن وفقدنا معه حسن الرصف او حسن الوقع في السمع . ولو قلنا إنارَة العقل — بالهاء او انارأ بالهمزة لفقدنا حُسن الوقع في السمع فضلاً عمَّا نشعر به من صعوبة لفظ الهاء او الهمزة بالنسبة الى التاء وإنْ كان طفيفاً . ومعلوم أنَّ عموم المتكلمين الاوَّلين والمتاخرين اعتمدوا على بداهة الفطرة التي ترشدنا الى ما يجب قبل ان نستطيع التعليل العقليّ عنه

في آسيا وافريقيا واميركا فضلاً عن اعتمادهم اللغتين اللاتينية واليونانية وأَخذهم عنهما ما انا في غنىً عن الاطالة بذكره، فزاد ذلك في غنى لُغاتهم ولم يحطّ من درجة فصاحتها وبلاغتها ولا شوَّش فيها بما خالط من حابلها بنابلها. فان قلتَ ان العربية فيها كتاب منزل واخبار واحاديث ينبغي المحافظة عليها كما كانت أيَّام الرسالة وفي سائر القرن الأَول للهجرة ولا يكون ذلك الاَّ بحفظ الفاظها وبمعرفة تمام المراد بها كما كانوا يفهمون ذلك في صدر الاسلام، قلتُ كان في اليونانية كتابٌ منزَل وما هو بمنزلة الاحاديث والاخبار ايضاً ثمَّ استجدَّت لهم لغةٌ غير اللغة التي كانت ايام هوميروس وايام كبار فلاسفتهم وفي صدر المسيحية ايضاً فلم يشوّش ذلك لغة تلك الكتب المنزَلة بل بقيت مفهومة في أَلفاظِها وتراكيبها على مثل ما كانت مفهومةً في الازمنة التي أَشرنا اليها[1]. ثمَّ هذه هي لغة التوراة السامرية فان علماء البقية الباقية من الشعب الذي كان يتكلمُ بها على قلَّتهم وانحطاط تمدُّنهم لا يزالون يحافظون على مفهومها الاول ايام كانت مَحكيةً من أُناسهم منذ مئات السنين

ومثل ذلك يُقال في لُغة كُتب اليهود المقدسة فانَّ علماءَهم الان لا يرتاب احدٌ في فهمهم إِيَّاها كما كان يفهمها عزرا الكاتب ومن جاء قبلهُ او بعدهُ من العلماء. بل علماؤُهم المتأَخرون هم الذين ضبطوها بالحركات والعلامات المعروفة لها اليوم وهي بالغة منتهى التحقيق والدقة

بل القرآن والحديث بإِجمالهِ ليس من يشكُّ الان ان علماءَ اليوم من

(١) وكذلك بَقيَتْ لغة افلاطون وارسطو وهيرودتوس وغيرهم ممن تقدَّم او تاخَّر عنهم من كبار الكتاب والشعراء والمؤرّخين والحكماء تفهم كما كانت في ايامهم

سنيّين وشيعة يفهمون لغتهما كما كان يفهمها العلماء في صدر الاسلام في مكة والمدينة مع ان لغة هاتين المدينتين تختلف اليوم اختلافاً كبيراً عمّا كانت عليه فيهما ايام الخلفاء الراشدين الى ان قامت الدولة المروانية بل الى ما بعد ايام الرشيد والمأمون . ومثل العربية والسامرية السريانية ايضاً في ذلك

البحث الثالث

ما هو اصل هذه الهاء ؟

وجواباً على هذا السؤال نقول : أجمعَ رأيُ كلّ علمائنا المتقدمين والمتأخرين على أنّها زائدة . وهذا يعني أنها أصل قائم بذاته مستقلٌ عن اللفظة السابقتها . واجمع رأيهم ايضاً على ما اعلمُ ان حكمها مع ما قبلها كحكم ثاني جزئي المركب المزجيّ مع الجزء الذي قبله . فهي إذن ليست مجرد حرف هجاء اجتلب اعتباطاً للدلالة على التأنيث او الواحدة بل هي اصل شُذّب من حروف هجائه فلم يبق منها إلاّ أُسُّها وارسخها على البقاء ، اعني الهاء

وكل هذا يشير باوضح اشارة الى أنّ هذا الاصل هو ضمير الغائب المؤنث في الصفات كمؤمن ومؤمنة . والمذكر او المؤنث مع أسماء الأجناس كشجر وشجرة وزيتون وزيتونة . اما انّ الالفاظ الثلاثية الحروف قد يُشذّب من حروفها حرفٌ او حرفان فكثير متعارف كدم وأب وأخ وهنُ ممّا شُذّب منه حرفٌ واحدٌ . وأما ماشذب منه حرفان فكثير ايضاً ويكاد يكون كالمطّرد عندهم في كل فعلِ أمرٍ من اللفيف المفروق كفِ وقِ وطأ بالهمز فاذا لُيّنتِ

الهمزة انقلب الى طَ ايضاً. وقد يلحقون جميعها بالهاء العبرانية التي هي عبارة عن فتحة مشبعة مُمالاً فيها تارة ومُخلَصاً فيها الفتح تارة أُخرى كسلْطانِيَه ونفسيِه وكتابِيَه ومن يعش يَرَه

قلت يكاد يكون كالمطرد عندهم ولم اقل وهو مطرد لأَنه وان كانت قاعدتهم تكاد توجب الاطراد فالمنقول لا يطَّرِده ولا الاطراد واجبٌ. فإِنَّ كلَّ ما عدل فيه عن الأَصل لا يكون العدول الا لسبب فهو إِذن من قبيل الاستحسان فإِن أُحتجنا الى الرجوع الى الأَصل لغرض ما مقبول رجعنا الى المفضول مع وجود الفاضل. والمعوَّل عليه في كل ذلك ايضاً بداهة الفطرة فاعتمدْ بداهة فطرتك المهذَّبة الراقية ولا تخش لومة لائم

وقد تحذف الهمزة من أَوَّل الكلمة او من وسطها ويكثر ذلك في الامر نحَذْ وكلْ ومرْ وسلْ فقس على كل امثاله

البحث الرابع

هل نشأ عن هذا الأَصل مع الاَيام متولِّدات يُمكن لنا تتبُّع حلقاتها في سلسلة لا تزال محفوظة على أَلسنة المتكلمين وفي آداب المتأدبين من الشعراء وكبار الكتاب الى اليوم؟ والجواب نعم. واوَّل حلقات هذه السلسلة «هوَّى» وآخرها الهاء ساكنةً راجع ما جاءَ عن هذا الضمير في محيط المحيط فان من جملة ما يقوله =وبعض العرب يسكن الواو من هو والياء من هي وتشدّدهما همدان كقوله

وانَّ لساني شهدةٌ يشتفى بها وهوَّ على من صبَّهُ اللهُ علقمُ

وعندي ان اشباع الفتح في البيت أولى لأنَّ زحف فعولن في الطويل عارضٌ وهو جائز غير لازم لانه خروج عن الأَصل . والبقاء على الأصل اولى من الخروج عنه

ويؤيد اولوّية إشباع فتح « هوَّ » في البيت للسبب الذي ذكرناه ما هو جارٍ على عموم الألسنة فإنهم يقولون هوّي وهيّ يميلون فيها الى الكسر وقد وضعنا هذه العلامة (٢) فوق الشدَّة دلالةً على أنَّ الإِمالة في المقطع الأَخير من هوّى هو كالإِمالة في لفظ المقطع الاخير من قاضي على ما يلفظه أغلب اهل سوريا ولبنان إلاَّ اهل قضاء الحصن (واهل مصر على ما ارجح)

ومن حلقات السلسلة المتفرعة عن هذا الأَصل ما يأْتي :

هوَ وهيَ . ثم (هوْ) و (هيْ) ثمَّ (هُ) و(ها) ثم (هْ) ساكنة للمذكر بنقل حركتها الى ما قبلها كما يظنّ كقولك زيد لا تضربُهْ . والشواهد على هذا كثيرة عدد الحصى والرمال قال الفرزدقُ

صَبَحْناهمُ الشعثَ الجياد كأَنَّها قطىً هيَّجتْهُ يوم ريحٍ اجادلُهْ

وقال الاخطل :

صحا القلبُ عن اردى وأقصر باطلهْ وعادلهُ من حبِّ اروى اخابلُهْ

أَجِدَّكِ ما نلقاكِ إلاَّ مريضةً تداوين قلباً ما تنام بلابلهْ

اما الشواهد على نقل حركة « ها » المؤنث الى ما قبلها فلم أظفر له بشاهد ولا أَعلم أني رأيتُ له شاهداً إلاَّ أنَّ سيبويه نقل اتيان هذه الها مقلوبة الفا

---

(٢) هذه العلامة هي عبارة عن الفتحة والكسرة

في مثل كتابُها ونظرتُها فقالوا في مثل هذين المثالين كتَابا ونُظرَتا . واذا تأمَّل متأمل في هذا القلب رآه من قبيل نقل حركتها الى ما قبلها واسقاط صورة الهاء ولفظها بخلاف هاء المذكر فانهم ابقوا صورتها واسقطوا لفظها

ولمَّا كان الجاري على عموم الألسنة اليوم ان يلفظوا كتابهُو « كتَابُو » وكتابُها « كتَابا » وكان الأسلوب الظاهر الذي أُعتمد في اللفظ واحداً اي إسقاط لفظ « الهاء » (كانما هو بعد حذف حركتها او نقلها الى ما قبلها وابقاء حرف العلَّة المُتَّصل بها) أرى تعليلاً لذلك أقرب الى التدريج من تعليلهم واقرب الى المتَّفق عليه عند اكثر علماء الفيلولوجيا المتأخرين ان لم نقل كلّهم وهو كما يأتي

من المُتَّفَقِ عليه ان الهاء والهمزة حرفان حلقيَّان إلاَّ أنَّ مخرج الهمزة اقرب الى منتصف اللسان من مخرج الهاء الذي هو أبعد منهُ الى جهة اقصى الحَلق : ومن ثَمَّ فالهمزة اسهل على النُطْق من الهاء واولى اذا احتيج فعلاً او توهُّماً الى قلب لفظ احدهما الى لفظ صاحبه أن يُقْلَب الى أخَفِّ الحرفين على اللسان وهو الهمزةُ وعليه يقالُ في «كتابْ هو» (كتاب أُو) وفي «كتابْ ها» (كتابْ أا) . ثم من المألوف عندهم (ونُقِل عنهم كثيراً) نقل حركة الهمزة الى الساكن قبلها وحذْفها متى دعاهم داعٍ الى ذلك

قال الشاعر الحماسة

وإني اخوك الدائمُ الودِّ لم أخُن ... أنَ اُبْزَاكَ خَصمٌ او نبا بك مَنْزِلُ

والأُصل أنْ أبْزاكَ خَصمٌ فنَقَلَ إقامةً للوزن حركة الهمزة الى الساكن

قبلها وحذفها . ومثل أنْ أبزاك مَنْ أبُوك فانهم قالوا فيه قديمًا مَنَ بُوكَ[١] وعلى هذا المألوف والمنقول عن فصحاء المتكلمين جرت فطرتهم في تخفيف الهاء الى همزة ثم لزيادة التخفيف حذفوا حركتها او نقلوها الى ما قبلها فصار اللفظ « كتاب أُو » بتحريك الباء او بإسكانها الى « كتابُو » وعلى مثل ذلك صار لفظ « كتابُ ها » الى « كتاب أا » وهذا الى « كتابا » وعاشت الصورتان معًا إلاَّ أنَّ الأخفَّ اي صورة « كتابُو » « و نَظَرْتُو » و « كتابا » و « نَظَرْتا » كَثُرَتْ بيداهة الفطرة على الالسنة مع الأيام صورةَ « كتابُهُ وكتابُها » وعاش الفاضل والمفضول الى ان يتأذَّنَ الله بارتفاع المفضول وبقاء آثاره متحجّرةً في دفائن كتُب اللغة وادابها من نظم ونثر . وبعيدٌ ان يكون للغتنا العربيَّة بملى شدَّة محبَّتنا لها وتغالينا في سموّها متابعة لما ملَّقنا به موالي الصدر الأوَّل ميزةٌ دون بقيَّة اللغات تحول دون ان ينالها ما نال لُغتيِ الفلسفة وعظمة المُلْك اليونانية واللاتينية وما نال غيرهما من اللغات الاوروبيَّة لغات العلم والأدب والفلسفة والصناعة اليوم . ولنرجع الآن الى كيف ننسب الى الاعلام المختومة بهاء التأنيث او بهاء الوحدة

---

(١) ومثل ذلك قولهم ولَوَ انّي وقد ورد في الشعر كثيراً . ومن ذلك ايضًا اسقاط الهمزة من أيّ قال دعبل :

مِنَ أيِّ ثنيَّة طلعت قريشٌ وكانوا عصابةً متنبّطينا

كيف ننسب

الى الاعلام المختومة بهاء التأنيث او الوحدة (١)

خصوصية للنسبة

قبل ان نبدأ بحثنا هذا الذي مهّدنا له التمهيدات الاربعة المارّة لا بُدَّ لنا من ذكر خصوصيّةٍ للنسبة اتَّفَقَ على تقريرها جمهورُ علَماء اللغة منذ ايَّام سيبويه الى يومنا الحاضر وهي :

(اولا) أنها تردُّ[٢] المحذوف من آخر المنسوب اليه كدَمَوي وأخَويّ وابَوي نسبة الى دمٍ واخٍ وابٍ . ولا أُتعبُ القاريءَ بايقافه على رأيي الخصوصي في شأن هذه الواو والصور التي انقلبت اليها مع الايَّام الى ان رسخت على صورتها الحاضرة لعَدَم الحاجة الى ذلك

(ثانياً) كما تجوّزُ النسبة رَدَّ المحذوف تجوّزِ ايضاً حذف الزائد

---

(١) كفاطمة وسُكينة من اعلام الاناث ، ورَحبة وشدْرة من اعلام الامكنة ، وطلحة وشيبة من اعلام المذكر

(٢) وهذا الردّ جائز لا واجب كَكل عدول عن الاصل او القاعدة الكلية ولا يكون الاَّ لسبب اقتضاه . ومع بقاء السبب المقتضى لايجوز الرجوع الى الاصل الاّ لضرورة شعريّة او ماهو من قبيلها وممَّا قلناه في رد « المحذوف » يجري حكمه ايضاً في حذف الزائد : فلا يبرحْ هذا من ذهنك ولا يبرح منه ايضاً ان لغتنا العربية سمحة لا تخضع كاهلها لقيود استبداد الافراد مَنْ كانوا وايّاً كانوا ولا تسبقها لغة من كل لغات الغربيين الراقية في تحكيم بداهة الفطرة والجري على ما تقتضيه

بشرط عدم الالتباس وان يبقى المنسوب اليه مع الحذف اخَفّ على اللسان لفظاً واشهى في الآذان وقعاً منه بدون حذف

ومن اقرب الامثلة على حذف الزائد لفظ ايطاليا وافريقيا فان النسبة اليهما الشائعة على عموم الالسنة هي افريقيّ وايطالي بحذف الياء والالف الزائدتين . وانت ترى ان النسبة مع الحذف اخفّ جدًّا جدًّا على اللسان واشهى في السمع من النسبة مع الاتمام ولذلك أُختيرت في الاستعمال دونها : على انّي اقول انه يجوز الرجوع الى الاصل عند الضرورة واما عند الاختيار فالبلاغة لا تُجيز ترك المالوف الغالب في الاستعمال الى المهجور النادر فيه . وهذا ما تجري عليه بداهة الفطرة وقلَّما تحيد عنهُ

فان قلتَ انَّا نسمعُ كثيرين يقولون طلياني او ايطالياني . قلت عندنا لفظان، ايطاليا علم للبلاد المعروفة، وايطاليان او طليان علم جنس لسُكَّان ايطاليا بالولادة فيها او بالاكتساب الطاريء فلا نخلطْ بين الصورتين اي ايطالياويّ وايطالياني فإنَّ الصورة الاولى تعني واحداً من سُكَّان ايطاليا كان ولا يزال . واما الثانية فتعني واحداً من افراد الطليان ولا يجوز لنا ان نفهم من احد اللفظين نفس ما نفهمه من لفظ صاحبهِ الاَّ بقرينة دالَّة لا مجال معها لتردُّد الذهن في الفهم

النسبة الى الاعلام الاعجمية لموءَنَّث (١)

اصل الهاء او الالف في هذه الاعلام هو الفتح بين المُشبَع والمُطْبَق (او المخطوف) فاذا اعتبرناهُ فتحاً مطبقاً كانت النسبة الى غرناطة واثينا غرناطي

(١) كغرناطة وأثينا

وأثيني. وان اعتبرناه فتحاً مُشبعاً (وكل الف هي فتح مُشْبَع) جاز لنا حذف الالف وجاز لنا قلبها واواً . واذا توهمنَّاها علامة تانيث او وحدة جاز لنا مُعامَلتُها كما نعامِلُ امثالَها اي بردِّ المحذوف او ابقائها على لفظها وعليه فالنسبة الى مثل غرناطة واثينا يجوز ان تتردَّد بين ثلاث صور اي غرناطيّ واثينيّ وغرناطويّ واثينويّ وغرناطاويّ واثيناويّ ولما كانت كل صورة من هذه الصور الثلاث لا تؤدّي الى جهل المنسوب اليه جاز لك اختيار ما شئت منها فاختر ما يوافق غرضك او بداهة فطرتك التي تدعوك الى اختيار اوقعها في السمع واسهلها في اللفظ

النسبة الى اعلام الامكنة عندنا (١)

ارى انّ بداهة الفطرة ويوافقها ما جرى عليه كتّابنا المتاخرون تُفَضّل شدراوي ورحباوي بالاتمام ورد المحذوف على شذْريّ ورَحبيّ بحذف الزائد. ولم اسمع مُطلقاً من اقضية صافيتا وعكّار والحصن الذين يعرفون هاتين القريتين رجلاً او امراةً او ولداً قال شذْرِيّ او رحبيّ بل كلهم يقول شدراوي ورحباوي

واماَّ مكة فلما كان الحذف والاتمام يتقاربان في سهولة اللفظ وحُسن الوقع في السمع شاعت النسبة اليها بالحذف كتابةً وعلى الالسنة وتمكن استعمالها في النفوس لِما يُرَى ويُقرَأ في اوائل سُوَر المصحَفْ اي انها مكيَّة او مدنيَّة. على ان النسبة بالاتمام وردِّ المحذوف ما زالت معروفة وان قلَّ استعمالها

---

(١) كشَذْرَة ورَحْبة ومكَّة وبصره

في مثل قولهم حنّة مَكّاويّة ومسبحة مكّاويّة . وقد سمعت هذه النسبة تجري هكذا عفو الخاطر على لسان غير واحدٍ وغير مرّة ايضاً وقد تقال كثيراً في صورة النداء للتحبُّب وفي الغناء للتحالي وقد سمعت قائلاً يقول « يا عيني ريحة العطر المكّاويّ »

ومثل النسبة الى مكّة النسبة الى الكوفة و يتلوها النسبة الى البصره الاّ انّ النسبة بالاتمام وردّ المحذوف كثير في مثل قولنا — التلامذة البصراويّة كثار هذه السنة في الجامعة الاميركانية . والبصراويّة تمورُهم كثيرة وسمعت مرّة احدُ الباعة يقول — « جاني بهالجمعه تمرات بصراويّات عال سمعْ مني خلّيني ابعث لك صندوق للبيت او على الاقلّ نصف صندوق التمرات ناهين » وسمعت مرة أُخرى احد المغنّين يقول « يا ولد يا بصراوي » و يلقي على الصوت الغنّة الدالّة على الدالّة والتحبُّب واظهار عواطف الاستحسان . ولا يبعد (اذا كثُرَ شبُّان مكّة في الكليّة الاسلاميّة في بيروت مثلاً او في غيرها من الكليّات والمدارس) ان نسمعهم حينئذٍ يقولون التلامذة المكاويّة والمكاويّين لا المكيّة والمكّيّين : وعمدتهم في ذلك بداهة الفطرة التي كانت وستبقى لنا كما كانت لمن تقدّمنا الامام الحاكم المرشد الى الصواب في كل الاحكام والضوابط اللغويّة والبيانيّة فارجع اليها وانسب الى حاصبيّا وراشيّا ومجدليّا وامثالها حاصباني وراشاني ومجدلاني وفقاً لما اختارتهُ بداهة فطرة اهالي هذه القرى فإنّهُ لا يجوز لك ان تتهجّم عليهم في عقر دارهم وتُوجِب عليهم ما لم يوجبوه على انفسهم

على انّا نعود فنكرّر القول انهُ لا يجب اطّراد النسبة بحذف الزائد في كل موضع ولا اطّرادها بالاتمام كذلك بل لا يجب عليك احدهما ويمكنك (اي

يجوز لك) ان تقول في النسبة الى حاصبيّا وراشيّا وامثالهما حاصبيّاويّ وراشيّاوي اذا احتجت الى ذلك لغرض من الاغراض لفظيّ كحسن رصف او محافظة على وزن او معنويّ كمنع الالتباس او اطالة الفكرة قبل انْ تهتدي الى المنسوب اليه كزَيْدَا نيّاويّ على لفظها او زَيْدانيه ويّ على رسمها : وهو ما اعتمده علماء الاتراك [1] واعتمادهم هذا هو غايةٌ في الفطنة والصحّة

وكما ذهبتْ بداهة فطرة اهل حاصبيّا وراشيّا الى حاصباني وراشاني في النسبة الى بلدتيهما : ولعلّ هاتين الصورتين مُخَفَّفتان عن حاصبيّاني وراشياني وهاتين ايضاً مقلوبتان عن حاصبيّاوي وراشيّاوي بقلب الواو نوناً لقرب مخرجيهما وهذا ما نصّ عليه صراحة علاّمة اليمن صاحب كتاب وصف جزيرة العرب في صنعاني وبهراني (وحلواني) : ذهبت بداهة فطرة من تقدّمنا في افريقيا واشوريا وسوريّا الى افريقيّ واشوريّ وسوريّ الاّ انّها في افريقيا اجازت افريقاني كما ورد في كتابات من تقدّمنا ولم اسمع [2] بمنْ قال في اشوريا وسوريّا غير اشوري وسوريّ

ومثل اشوريا وسوريّا (بالالف او بالهاء رسماً) آسيّا وآسيا ولكني

---

(١) ابقى هولاء العلماء هذا الحرف على رسمه الكتابي واجروا عليه احكام لفظهِ . ولفظهُ الف ممدودة وهذا وفق ما تقتضيه بداهة الفطرة والطبع اذا خُفّفتِ الهاء المتطرفة الى همزة بعد حركة فانّهُ لا بُدَّ حينئذٍ من اشباع الحركة بشهادة الحس الذي لا تردُّ شهادتهُ (٢) « لم اسمع » — هذه شهادة نفي لا قيمة لها عند الاستدلال بها على ارادة التعميم فإن لم اسمع انا او لم يسمع فلان كذا لا يوجب ان لا يكون سمعهُ غيري او غير فلان بل الوف غيري وغيره ولهذا يجوز لنا ان نرجع الى القاعدة العامّة لغرض او لحاجة فنقول « اشيريّاوي » و « سوريّاوي »

لم اسمع فيها غير آسياويّ ويُستكره إنْ لم اقل يتعاصى على اللسان ما اذا قلت آسيّ بخلاف «ليبيا» التي هي من باب «آسيا» فانهم قالوا في النسبة اليها ليبيّ ولانشعر انهُ يُستكرَه او يتعاصى على اللسان ما اذا قلنا ليباويّ كاسياوي او ليبياوي على الاتمام ايضاً

فاعتمد ذوقك (اذا بلغ اشُدَّهُ) وفضِّل ما هو الغالب على عموم الالسنة ولا تخف ان تختار ما يوافق غرضك الذي فيه المصلحة لك فانت واضع الفاظ اللغة وعلومها وضوابطها والسيد المستخدم لها لا العبد المُستَخدَم منها او لراي واحد من افراد المتكلمين [1] بها من دون ما سندٍ عقليٍّ يضطرُّك الى قبوله

النسبة الى الاعلام المختومة بالهاء لمذكر عاقل (٢)

يجوز لنا ان نردَّ المحذوف او نحذف الزائد. والحاكم الذي يُرجَع اليه انما هو بداهة الفطرة او الذوق العام. فنقول بردّ المحذوف طلحاوي وشيباوي وقحطباوي وصعصعاوي وعند الاحتياج اقامةً لوزنٍ او لحسن رصفٍ يجوز ان نقول طلحويّ وشيبويّ الخ

ويجوز ان نقول بحذف الزائد طلحيّ وشيبيّ وقَحْطبيّ وصَعصعيّ. على

---

(١) ولو كان شاعراً مفلقاً او كاتباً متفوّقاً. لكن في الوقت نفسه لا تخف ان تقيم وزناً لبداهة فطرته فيما كتب غير متعمّد او تكلم ووافقت كتابتهُ او كلامهُ بداهة عموم المتكلمين وان لم ترد في معاجم اللغة

(٢) كطلحة وكشيبة وقحطبة وصعصعة

اني ارى النسبة بالحذف في طلحة وامثاله لا يجوز اختيارها ببلاغة الاّ لغرضٍ ومع القرينة التي تصرف الذهن من غير وقفة او تردُّدٍ الى المراد بالنسبة اليه اي الى الشخص المُسمّى طلحة لا الى طلْح اسم الجنس · بخلاف شيبة فان النسبة اليه بالحذف لا يلوي معها الذهن الاّ على العَلَم فلا بأس عليك اذن ان تقول فلان الشيبيّ او الشيباويّ بالحذف أو بردّ المحذوف لعدم المحذور الذي ألمعنا اليه في طلحيّ · وكذلك تقول في قحطبة وصعصعة فاعتمد سلامة ذوقك وتابع الغالب على الأُلسنة فانّهُ عبارة عن بداهة الفطرة والله يعلم وانتم لا تعلمون

كيف ننسب الى مثل قريش وثقيف

مثل هذه الالفاظ المنتهية بحرف صحيح ومن اصول الكلمة ايضاً كان ينبغي ان يُنْسَب اليها بزيادة علامة النسبة في آخرها ولكنَّهم حذفوا ثالثها المعتلّ وقالوا قُرَشِيّ وثَقَفِيّ ولا اذكرُ ان قد ورد امامي في مطالعاتي ثقيفي على الاصل في نظم او في نثر · وجاء على شاكلة قُرَيش وثقيف الفاظ لا تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة بل لا اذكرُ ان قد جاء على مِثَال ثقفي الا لفظًا واحداً وهو حَنَفِيّ او حَنَفِيّ الدار

والظاهر ان قد اشتبه الأَمرُ على بعضهم امَّا غَفْلَةً او لانهم لم يوفوا علوم اللغة ولا سيما مباحث صرفها على تعدُّد انواع تلك المباحث حقها من النظر والتأمُّل وظنُّوا ان شهرتهم الادبية تكفيهم للحكم في مسائل هذا العلم وتغنيهم

عن التعمق وامعان النظر قبل الحكم فيها . فزعموا من ثَمَّ ان المعدول عنه لسبب هو الاصل وان الاصل ،و من قبيل الشذوذ الذي لا يُلوى عليه

لماذا عدلوا عن قُرَيشيّ الى قُرَشيّ
وعن ثقيفيّ الى ثَقَفيّ ؟ وهل يجوز تعميم هذا العدول ؟

يظن كثيرون من ادبائنا اليوم انهم (اي علماء اللغة عن آخرهم) عمَّموا الحذف واوجبوه وانا ارى ان التعميم لا سند له في اللغة اصلاً وان الحذف في هذه الالفاظ المحدودة جاء عرضاً لاسباب سنذكرها

اما الالفاظ التي على وزن قريش ونسب اليها بالحذف فالذي في محفوظي منها هو هجيمي وقريشي وكأني اتخيل لهما ثالثاً جاء فيها وحدها فقط حذف الحرف الثالث فقيل في النسبة اليها هجميّ وقُرَشيّ . وجاء فيهما ايضاً هجيمي وقرَيشي من غير حذف واما ثقيف فلم اسمع في النسبة اليه الاَّ ثَقَفيّ وعلى شاكلته جاء حَنَفيّ نسبةً الى بني حنيفة او الى ابي حنيفة

واما الذي جاء بالاتمام من مثل قريش فاليك ما ياتي : قُرَيعيّ . نُميريّ عقَيليّ . معُيديُّون نسبة الى جدّهم معُيَد من خُولان وكان مع الامام عليّ . وقُشَيري . وأُكيليّ . وحسينيّ وزبيريّ . وسحيميّ . وكُتيفيّ . ودولة العبيديّين نسبة الى عُبيد . وزُبيديّ والسُكينيّة نسبة الى سكينة بنت الحسين وقُعَيطي وشقَيري وشُوَيري ونُصيري وطفيلي ودميري والدُبيري وفقيمي

وهُجيمي ورُدَيني ودُرَيدي ولعلك اذا فتَّشت ترى الفاظ اخرى مثلها وتزيد عدداً عمَّا ذكرناهُ لم يُعْدَل فيها عن الاصل

. ما جاء بالاتمام من مثل ثقيف

واما ما كان على وزن ثقيف ولم يحذف ثالثه عند النسبة فاليك ما ياتي منه : الاموال الاميرية والثياب الحريرية والربيعات اي القصائد المنظومة في مدح الربيع والبديهيات والطبيعيات والعزيزيَّة نسبة الى عبد العزيز . والعصر الحميدي . واللون العقيقي والعصر الحديدي والإبل المجيدية . والبقر الخديرية . والدين المسيحي . والمادة الصديدية والطبقة او الرطوبة الجليديَّة لطبقة من طبقات العين . وعسيري وسريري وشبيبي الخ الخ

قلت انهم عدلوا عن قريشيّ الى قُرشيّ وعن ثقيفي الى ثقفي لسبب وإليكهُ على ما في اعتقادنا

اعلم انَّ من الالفاظ ما اذا حذف منه حرف او حرفان كان في حروفه الباقية ما يدلُّ على ما حُذِف كقُرَشي وثقيفي وسوري ومكيّ . ومنها ما ليس كذلك كحسيني وعُقَيلي وعقيقي وعفيفي وحميدي . وهذا راجع الى بداهة الفطرة وحصره في ضوابط تكلُّف لاحاجة اليه

وهناك سببٌ آخر يرجعُ الى ما بين لُغتين او لهجتين من اختلاف جزئي في لفظ الحركة وحرف اللين او حرف المد بعدها كلفظة « عين » مثلاً فان اهل دمشق وحمص وحماه يلفظون الفتح ممالاً فيه نحو الكسر . واما معظم اهالي لبنان وبالاخص قضائي الشوف والمتن فيخلصون الفتح وابقاء

حرف اللين على لينه واماً اهل قضائي الحصن وصافيتا ومعظم اهالي متصرفية اللاذقية فيقلبون حرف اللين هذا اي « الياء » الفاً و يقولون عان · ومثل عين زيت وبيت وعبيد وامثالها فانهم يلفظونها زات وبات وعباد وعلى لغة هؤلاء تلفظ قريش قراش والنسبة اليها قراشي ولا اكثر من ترك الاشباع في الكلام · وكما هو شائع اليوم كان كذلك في صدر الإسلام وما قبله كما يرجح ذلك اهل الفكرة · ولا نعدم شاهداً عليه نقله الرواة عن الشعراء وهم لا يقصدون : وبترك الإشباع تصير قراشي قرشي · واما لفظ ثقيف فعاملة قديماً وفي جبلهم الى اليوم بل الشيعة في كل سوريا ولبنان يقلبون كسرته المشبعة بل كل كسرة مشبعة سواء كانت ثانية او ثالثة او رابعة الفاً ويقولون ثقايف والنسبة الى ثقايف ثقايفي ولا يلبث هذا اللفظ طويلاً على اللسان قبل ان يلفظ ثقفي طلباً للخفة وحسن وقع اللفظ في السمع · والخلاصة ان الاعلام المشهورة يجوز فيها دائماً ان تتمشى وفقاً للحكم العام فيقال قريشي وهجيمي · ويجوز الحذف بشرط ان يكون في الباقي ما يدل على المحذوف بدون وقفة ومزيد تامل وان لا تختل به سهولة اللفظ وحسن الوقع في السمع ايضاً ومن ثمَّ لم يقولوا مطلقاً زُبَدي ولا حُسني ولا مُعَدي في زُبيدي وحسيني ومعيدي او نميري ورُديني الخ ولم يقولوا كذلك في مسيحي واميري وحديدي وخديري وشُوَيري الخ مسحي وأَمَري وحدَدي وخدَرِي وشوَري الخ ولا قالوا زَبَدي ولا تمَمي مع كثرة دوران هذه الالفاظ على السنتهم · وعشرات امثالها مع انها جميعها من باب ثقيف وقُريش حذو القذة بالقذة فتأمل وارجع الى حكم بديهتك وعقلك

انواع النسبة

بالنظر الى ما يزاد على المنسوب اليه

النوع الاول — زيادة ياء مشددة

اشهر انواع النسبة من هذا القبيل هو ما كان بزيادة ياء مشدّدة على اخر المنسوب اليه و كسر ما قبلها كَعَرَبيّ وأَعرابيّ وعجميّ وأَعجمي و يُفضَّل ترك التشديد في الوقف للخفّة و يجوز ان يزاد عليه ياء في القافية لاقامة الوزن او للتحالي قال ابن المُنَيّر الطرابلسي معاصر الشريف الرضيّ

من ركَّبَ البدرَ في صدر الرُدَينيِّ

بل قد تزاد هذه الياء للغاية نفسها في كل مختوم بياء قبلها كسرة كقاضي وصحاري فارجع الى بداهة فطرتك واستخدم هذه الجوازات فيما يوافق غرضك ٠ وفائدتك من اقامة وزن وحسن رصف او حسن وقع في السمع ٠ واياك ان تترك المألوف الشائع على الالسنة الى ما تحفظه بطون الدفاتر او رواهُ بعضهم فهجرت مع الايام روايته : فالبلاغة توجب ما هو اكثر شيوعاً على الالسنة وتنكر ما هو على عكسه الاَّ لغرضٍ وتحسبهُ من قبيل الضرورة والضرورات تبيح المحظورات اذا كان في الاباحة كبير فائدة لا تتأتى بدونها

وهنا ارجو من بعض كبار ادبائنا وشعرائنا الذين تصدّوا في الآونة المتاخرّة لمسائل علوم اللغة وليس ذلك من خصائصهم : ارجوهم ان يبقوا في

رياضهم الانيقة ذات الماء النمير والظل الوارف الظليل لا يتجاوزوها الى وعورة مسائل اللغة فيقاسوا لوافح حرّها ومُضرَّسات حِرارهـا التي تدمي الاقدام وتُضلُّ حتى السالك الخبير وليكتفوا بدائرة اختصاصهم فانها ابقى لهم واشهى وفي الوقت نفسه انفع للمجتمع ومن اعظم جوالب المسرّة لخيرة ابنائه المتأدّبين الراقين .

النوع الثاني من النسبة

وهو النوع الذي استعرناه من السريانيّة أُخت العربية واقرّهُ في الاستعمال منذ عهد الرسالة او من قبل ذلك في الارجح افصح فصحائنا واعلم علمائنا مدى اجيالٍ كثيرة في كلامهم وكتاباتهم ولا يزال على السنة عموم المتكلمين في كل الاقطار العربية حتى هذه الساعة اعني النسبة على مثال روحاني وجسداني او جسماني وربَّاني ونفساني نسبة الى روح او ما هو ذو روح الخ

وهنا اقول انهم كانوا في صدر الاسلام اذا اختطّ احدهم بلدةً او بنى حياً في مدينة او حفر نهراً نسبوا البلدة والمدينة او القرية او الحيّ او النهر الى من اختط او بنى او حفر بزيادة الف ونون كعبَّادان وحكمان وزيادان واطلقوهُ علماً على البلدة المختطة والحيّ المبني والنهر المحفور : ثم نسبوا الى هذا المنسوب اليه فقالوا عبَّاداني وحكماني وزياداني ويقول ياقوت انها نسبة مأْخوذة عن الفرس ومنها جرجان وجيلان والطالقان . والفاظ اخرى غير هذه تكاد تكون غير محصورة ويُنسب الى جميعها ايضاً بالياء ولا اشهر من الجرجاني بين علمائنا نسبة الى جرجان ومثل ذلك الطالقاني والجيلاني والسبخستاني والاندكاني

والصالحاني (وصالحان اسم محلة من محال اصبهان) والاصبهاني . الخ راجع معجم البلدان . ومعجم الأُدباء والمدن التي ينسبون اليها واحفظ كل ذلك في نفسك لنفسك

واما امثال جسداني وروحاني وربّاني فكثيرة واليك بعضها — صدراني للعظيم الصدر وهيقماني للطويل نسبة الى هيقم وهو الظليم الطويل وكلماني للجيد الكلام الفصيحهُ والغيطاني لصاحب الغيط والبلتعاني المتبلتع . والرقباني الغليظ الرقبة كالرقبان واللحياني الطويل اللحية ودجاجة قنبرانية على راسها قنبرة والطوراني كالطوري او الوحشي من الطير والناس . والعُنجهانيّة كالعُنْجُهيّة . والشعراني الكثير الشعر الطويلهُ وعلى الالسنة مشعراني والشعشعاني الطويل كالشعشع والشعشعان والشعشاع والشهواني والشهوان اي ذو الشهوة ويمكنك ان تجد اضعاف هذه اذا تتبعتها في مظانّها

ومن المشهور على الالسنة في الشام معصراني لصاحب المعصرة ومحمصاني لصاحب المحمصة ولم ينقل عنهم هذان اللفظان على ما اعتقد : والسبب على ما ارجح هو لان المنسوب إليه اي المحمصة والمعصرة لم تكونا معروفتين عند الاقوام الذين جمعت اللغة في ايامهم اعني بادية الحجاز ونجد والعراقين . بل انا على يقين ان المحمصة والمعصرة لم ترهما في مكة والمدينة عين منذ قبل ايام الرسول الى آخر ايام الدولة المروانية[1] . واما في دمشق وسائر المدن الشامية

(١) في الجامع الصغير لابي يوسف صاحب ابي حنيفة ان ابا عبيدة ارسل الى الخليفة عمر بعد فتح دمشق إناء فيه دبس وكتب اليه انني وجدت القوم هنا يدوسون العنب ويستخرجون منه مادّة يسمونها دبساً حلوة كالعسل لا يحدث عنها سكر وقد ارسلت الى امير المؤمنين اناء منها فاذا كانت مما يحلّه الاسلام فلامير المؤمنين ان يوقفني على حلها

والعراقية فارجح ان الفاتحين تركوا امر المحامص والمعاصر بل اغلب الصناعات ان لم يكن كلّها للذمّيين من النصارى واليهود والمجوس والصابئة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم بالدرجة الاولى ثمّ لمن اعتنق الاسلام من جميع هؤلاء فيما بعد بالدرجة الثانية ٠ ولذلك لم يُلَقّب احدٌ منهم بالمعصراني[٢] او المحمصاني او المزرعاني ٠ بل يمكنني اقول ان الفاتحين تركوا التجارة والصناعة والزراعة بادئ ذي بدء لغيرهم من الذميين ولمن دخلوا في الاسلام منهم وخصّصوا انفسهم بالامارة والجندية لا غير كلّ ايّام الخلفاء الراشدين وايام الدولة المروانية ٠ والمنقول الينا ان الامام عُمَر بن الخطاب حظر على الفاتحين امتلاك الارضين والاشتغال بالزراعة والغى الاستعباد عن العرب والأعراب وفرض لهم الديوان لكل عطاؤه إبتِدَاءً من المهاجرين والانصار ٠ وابتدأ من قرَيش باقربهم الى عمود نسب صاحب الرسالة ٠ ومن الانصار بالبدريين ثم الذين شهدوا أُحُداً ، فمن ثمّ كان العرب في سائر البلدان التي افتتحوها اشبه شيء بالانكليز في الهند وسائر مستعمراتهم التي اهلوها من الافريقيين والاسياويين الاّ انّ العرب تركوا الكتابة وضبط ارتفاعات البلدان المفتتحة والقضاء والتفسير والاشتغال بالعلم اجمالاً لمواليهم ولمن دخلوا في الاسلام من اليهود والانباط والفرس والسريان كل

وان لم يكن مما يحلّه فليأمرني لامنع عملها ٠ فجاء عمر بجماعة من الصحابة واذاقهم الدبس وسألهم ايحلُّ او لا يحلّ فاجازوا عمله فبعث الى ابي عبيدة باجازة عمله في حديث طويل فهذا يؤيد قول الاستاذ ان المعصرة لم تكن في مكة ولا المدينة في عهد صاحب الرسالة ٠ (امين خيرالله) (٢) من علماء الدين رجل يسمى بالمعصراني اظن ان له كتاباً في الحديث ٠ امين خير الله

ايام المروانيين · ثم ظهر نفوذ اهل خراسان والفرس في بلاد العباسيين فاستوزروهم وولوهم قيادة الجيوش وبلغ من نفوذ البرامكة وبنو سهل في ايام الرشيد والمأمون انهم كانوا في الحقيقة هم الآمرين الناهين دون الرشيد والمأمون ثمَّ لم يلبث الامر طويلاً حتى اصبح الخلفاء العباسيون بعد المعتصم ألعوبة بين ايدي وزرائهم وقوّاد جيوشهم من الترك والديلم وخرجت السلطة من ايديهم وتقسَّمت تلك الفتوحات التي لم يعرف التاريخ عن فتوحات قبلها اعظم منها فصارت ممالك متعددة لآمرين متعددين بعد ان كان الآمر فيها واحداً يَنفُذُ امرُهُ بمجرَّد صدوره من الاندلس وجبال البيرنيز غرباً الى المنصورية في السند شرقاً

على ان امر العربية لم يتراجع بتراجع سلطة العرب الفاتحين فبقيت اللغة على ارتقاء وازدهار لانها صارت لغة العلم والعلماء لكل الامم والشعوب التي اعتنقت الاسلام من فرس وديلم ونبط وسريان وروم وارمن واتراك ولان وخزر وفارابيين وافغانيين وبلوخستانيين وبخاريين وسمرقنديين وخوارزميين واهل السند وقدراً صالحاً من الهنديين الذين غزاهم ابن سبكتكين وادخلهم في الطاعة · ثم لم يلبثوا ان اعتنقوا الاسلام وقل مثل ذلك عن فتوحات شمالي افريقيا الى بحر الظلمات غرباً وصحراء اواسط افريقية الكبيرة جنوباً ومعظم جزر البحر المتوسط. وارثي التمدن الفينيقي اوَّلاً واليوناني والروماني ثانياً

كلُّ علماء هذه الشعوب خدموا العربية ولاسيما علماء السريان والنساطرة وفارس ايرانيين وطورانيين · ومن اظهر مَن خدَمَ العلومَ والاداب العربية اليهود حيثما كانوا الذين اعتنقوا الاسلام منهم والذين بقوا على يهوديتهم في

سائر الاقطار التي امتدَّت اليها الفتوحات العربية ايام بني أُمَيَّة ولا سيَّما في الاندلس . واذا اعتبرت في جريدة الكُتَّاب من ادباء وشعراء وفقهاء وقُصَّاص وعلماء لغة و كُتَّاب دواوين ومحدّثين دع الاطباء جانباً وعلماء الهيئة ومترجمي علوم اليونان وفارس والهند تجد معظم من اشرنا اليهم ان لم نقل كلهم من الموالي

واذا أَخذت تلك الاقليَّة العربية لنفسها و بحثت عنها تجد معظم ادبائها وشعرائها حتى وفصحاء اصحاب الرئاسات فيها من الذين كانت أُمهّاتهم فتيات كعبد الرحمن بن حسَّان شاعر الرسول وخالد بن عبد الله القسريّ فان أُمَّ الاول كانت قبطيّة وام الثاني روميَّة في الراجح واليك ما قال فيه الفرزدق

بني بِيعةً فيها النصارى لأُمّهِ ويهدمُ من كُفرٍ منارَ المساجدِ

وأُرجّح ان بشَّاراً كان مولى او ابن مولى واما نصيب وعبد بني الحسحاس فكانا كلاهما لزنجيٍّ وزنجيَّة

بل قُرَيش سيدة تجار العربية اوَّلاً ثم حاملة لواء السيادة والخلافة في فجر الاسلام كان يشكُّ في محض عدنانيتها هي وثقيف : قال دُعبل

من أيِّ ثنيةٍ طلعت قريش وكانوا عُصبَةً متنبّطينا

وجاء في رواية عن الامام عليّ انه قال نحن نَبَط من كوثى (١) وكانت لهم

---

(١) قال التاج مادة كوث «وفي اللسان قال محمد بن سيرين سمعت عبيدة قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول من كان سائلاً عن نسبتنا فانَّا نبط من كوثى واختلف الناس في قوله نحن قوم من كوثى فقالت طائفة اراد كوثى العراق وهي سُرَّة السواد التي ولد بها ابراهيم عليه السلام . وقال اخرون اراد بقوله كوثى مكة وذلك لان محلة عبدالدار يقال لها كوثى فاراد علي انَّا مكيُّون أُميُّون من ام القرى قال ابو منصور والقول هو الأَول»

دولتهم الاولى في سالع وهي وادي موسى المعروفة في أيامنا· وعُرِفَت في ايام الدولة اليونانية السورية باسم البطراء او البتراء وهي ترجمة لاسمها السامي الارامي اعني سالع بمعنى صخر ومن هذا الاصل في العربية سَلْع بمعنى الشقّ في الجبل على ما هي وادى موسى او سالع فانها كشقٍّ في الجبل المحيط بها ويوصَل اليها بشقٍّ لا يتجاوز عرضه احياناً الامتار ولا ينقص علوُّ الصخر القائم جداراً على جانبيه عن بضع مئات الاقدام احياناً كثيرة

وعندي ان الدم الغالب في قَريش هو الدم الادومي· وادوم هو عيسو ابن اسحق ابن ابراهيم خليل الله وخالطه دم عدناني وغَسَّاني بالدرجة الثانية ونبطي من اكابر تجار بلاد بابل بالدرجة الثالثة اسكنهم فيها نبوخذ نصَّر الذي اتخذها محطًّا لتجارة العراق فصارت بعده من اشهر محطَّات التجارة بين الجزيرة العربية وبلاد بابل شرقاً والبحر المتوسط ومصر غرباً· ولحصانة مركزها وغنى اهلها واتساع متاجرهم وعجز ملوك سوريًّا عن اذلالهم وضرب الجزية عليهم كان لهم نوع من الاستقلال وقام فيهم ملوك اتخذهم الرومان حلفاء وانصاراً وما زالت سيادتهم الى ما بعد المئة الاولى مسيحية· وحوالى سنة ١٠٥ مسيحية، وكان قد لجأ الى البتراء كثيرون من اليهود الذين هربوا بانفسهم من اليهودية والجليل في حروب هؤلاء مع تيطس — حاربهم الرومان وخرَّبوا مدينتهم فهرب من نجا منهم الى الحجاز واليمن الى محطاتهم التجارية فيهما والى حلفائهم هناك من تجار الانباط والثموديين [1] فنزل قوم منهم في الشمال حوالى المدينة

---

(١) ارجح ان ثمود تحريف صُماد (بالامالة الى الضم) لعمامة او لمنديل شبه العقال· وقد رأيت في المتحف البريطاني تماثيل لبعض البابليين في ايام نبوخذ نصَّر ولعلهم من

ومنهم بنو مرّة وعمر آخرون البتراءَ قرية بين مدائن صالح والمدينة والقسم الاعظم نزلوا مكة [١] والطائف ٠ ولحق بعضهم بعمان ٠ وكان تجار الانباط من اهل بابل قد اقاموا فيها وفي حضرموت مستعمرات لتجارتهم منذ ايام نبوخذ نصر ٠ فتفرّق من ثمّ الناجون من اهل البتراء بين اخوانهم وعملائهم في كل الجزيرة العربية من مدائن صالح وخربة ثمود والمدينة شمالاً الى عمان وحضرموت وعدن ابين جنوباً ٠ ولذلك عادت قريش بعد اخذهم الايلاف من الرومانيين الى خطتهم التجارية القديمة ينقلون تجارات اليمن والعراق ونجد الى سوريا ومصر فازدادوا غنى وازدادوا وجاهة واصبحت القبائل والبطون حوالي مكّة وبينها وبين المدينة وبين هذه وسوريا ومصر جمّالةً لهم يسيرون في قوافلهم حاملة تجارات العربية الى سوريا ومصر وتجارات هذين القطرين الى العربية ٠ وانتقلت اليهم سيادة مكّة في ايَّام قُصيّ ٠ قال بعضهم يشير الى ذلك

ابوكم قُصَيّ كان يدعى مُجَمّعًا به جمعَ اللهُ القبائلَ من فهرِ

راجع سيرة ابن هشام

جنوده « كما اذكر الان ذكراً خفيًّا » يعتقلون بتلك العامة اوالعقال : وعليه يكون معنى بني ثمود بني عقال فهل يا ترى كان العقيليّون او بني عُقَيل من بقايا هولاء الثموديين الذين لا تزال خربة ثمود تدل على سكناهم فيها وهي من المحطات التجارية القديمة واثارها شبيهة جداً باثار وادي موسى (اي البتراء) كما يقولون ٠

(١) ولا يزال التقليد بل التاريخ يحفظ ان صالحاً عليه السلام نزل مكة ومات هناك ولا شكّ انّ اتباعه نزلوا معه حيث نزل

وقال بعضهم انَّ فهراً ممن تلقَّب بقريش · وقال آخرون بل ابوه النَضْر وانَّ مَن فوقه من آبائه لا يُلقَّب او لا ينْعَت بقُرَشي او قُرَيشي

اذا علمت ان قريشاً كانوا دخلاء في مكة وانَّ من النضر الملقب بالقُرَشي الى الرسول ثلاثة عشر ابًا اذا علمت ذلك تبيَّن لك ان الزمن الذي بدأت فيه قريش بالظهور في مكَّة يوافق بدء القرن الثاني للمسيح · وهذا يوافق زوال ملك الدولة العربية النبطية في البتراء وخراب تلك المدينة وتشتُّت الناجين منهم من سيف الرومان الى الجهات التي كان لهم فيها المراكز التجارية وفي وجود قرية تُسمَّى البتراء بين المدينة ومدائن صالح ما يدعم هذا الرأي وفي بقاء هذا الاصل اعني قريش يحمل في مشتقّاته ما يدلُّ على معنى المعاملة او المتاجرة ما يدلُّ عنه التأمل ان القوم لُقّبوا بصناعتهم كما يُلقَّبُ صاحب الصناعة بصناعته الى اليوم كفلان البيطار او النجار او الصائغ او القرداحي وتعرف انساله بعده ببيت البيطار والنجار والصائغ والقرداحي والحدَّاد الخ ·

ويجوز ان يكون لقبهم مأخوذاً من القَرِش وهو الجمل [1] ثم نقل اللَّفظ الى لازم معناه اي التاجر لاضطرار كبار التجار الى اقتناء الجمال الكثيرة لتحمل بضاعتهم الى الجهات · وهذا اي كون قريش كانوا من اللاجئين الى

---

(١) جاء في اللسان القَرْش الجمع والكسب والضم من هنا وهنا · وقَرَش يَقْرِش قَرْشاً وبه سمّيت قُرَيش · واسم الفاعل من قَرَشَ قارِش ومعلوم الامالة في فاعل الى الضمّ فقَارش اذن معناها تاجر ولا يصعب على اللسان ان ينتقل من قَارش الى قُرَيش ومن هذا يستنتج ايضاً انَّ اول من نزل مكَّة في ايام النضر كان تاجراً كبيراً فعرف من ثمَّ هو وآله واتباعه ببيت التاجر

مكّة هو السبب كما ارى في انهَّم كانوا في اوّل امرهم تابعين مسودين لا متبوعين اهل سيادة · وكانوا ايضاً فريقين قريش البطاح الذين كانوا يسكنون المدينة وقريش الظواهر وهم الذين كانوا يسكنون متفرقين في خارجها وظواهرها فجمعهم قُصيّ كلَّهم الى نفس المدينة فكثّروا غيرهم من العشائر فيها وتمت بهذه الكثرة لقصيّ وعشيرته السيادة في المدينة دون خزاعة اصحاب السيادة من قبل كما لا يشكّ مؤرخ محقّق في هذا بعد النظر والتأمّل

ان لكبار تجار جديدة مرج عيون من النفوذ والوجاهة اليوم بين البطون البدوية بل وبين القرى المجاورة الفقيرة ما يكاد يكون كالنفوذ او الوجاهة التي كانت لقريش بين العشائر التي كان رؤساؤها في جملة رجال قوافلهم ويأتمرون بامرهم

وهناك ملاحظة أُخرى في صدد ما نحن فيه وهي انهَّ كان لقُريش لغة معروفة اشار اليها العلاَّمة احمد فارس في كتاب له في الصرف هي اقرب الى السريانية او الارامية او اللغة الخليط من اللّغتين على ما هي عليه اللغة التي رأَوا اثاراً منها في البتراء · ويتبع هذا ان القبائل حولهم لم يكونوا يعترفون لهم بالفصاحة لا نثراً ولا نظماً · وفي رواية ان اوّل من أُعترِف له بالشاعرية من قريش كان عمر ابن ابي ربيعة · وانهم اي قريش كانوا يرضعون ابناءهم في القبائل المحالفة لهم « وكل بطن منهم له حلفاءه » ليرتضعوا مع الحليب اللغة العدنانية وعادات قبائلها كما هي الحال اليوم مع تجار جديدة مرج عيون فانّ مخالطي البدو منهم لا يجهلون شيئاً من عاداتهم وفي الوقت نفسه لا تستطيع ترى فرقاً بين لغة هولاء ولغة هؤلاء

وآخر ما اذكر الالهة التي كان لها تماثيلها في الكعبة — ولم تكن كعبة إلاَّ في مكة والطائف — وهي هُبَل واللات وليس هبل الا تحريف « هبَّعل العبراني » اي البعل وتحليل اللفظة « ها » حرف التعريف كأل « وبَعل » اي بَعْل ومعناه السيد العظيم وهو الشمس ولا يزال لفظ بعل يحمل معنى السيادة في العربية الى اليوم

واماَّ اللات فإِلهة معروفة كانت في وادى موسى او سالع ومعروفة ايضاً في تدمر وتجارها انباط معروف امرهم فانهم صاروا اخيراً الى رياسة تكاد تكون اعظم من الرياسة التي صار اليها تجار سالع في ايام اعتزازهم معظم ايام الدولة اليونانية واوائل تغلُّب الرومان على سوريَّة وكاد يصل الى مثلها اكابر تجاَّر قريش في اوائل ظهور البعثة الاسلامية ٠

وهناك إلهة اخرى وهي العزَّى واراها مُحرَّفة عن عشتا مختصر عشتاروث العبرانية او الارامية وعن عشتا جاءَت اللفظة اليونانية اعني ايْسِيسْ المعروفة عند جُلّ كبار كتَّابنا الحاليين اضف الى ذلك دار الندوة التي كانت لقريش وتقسيم الرياسة بينهم على ما يقارب ما كان عند الرومانيين ايام بمباي وقيصر٠ واضف الى ذلك ما كان بين قريش وثقيف من المناسبة فإِنَّ احلاف ثقيف من هوازن كانوا ينظرون اليهم كما كانت كنانة او الاحابيش تنظر الى قريش ومعلوم ان ثقيف ما زال اكابر النسابون يحفظون العلم انهم من ثمود وان زمن هجرتهم الى الطائف يقارب زمن نزول قريش شمالي الحجاز ومكَّة

ومع انَّ قريش كانت تتأبىَّ ان تكون في اول امرها دخيلة على اهل مكَّة مغمورة بينهم لم تستطع مع كل ما صارت اليه من العَظَمة بالرسالة

والخلافة ان تخفي هذه الحقيقة وتجاسر دعبل (في خلافة المأمون كما اظن) ان يقول

من ايّ ثنيةٍ طلعت قريش وكانوا عصْبةً متنبّطينا

ويدعم كلّ ما تقدّم قول الاحابيش لكبراء اهل مكّة حين منعوا الرسول ومن معه من المسلمين عن دخول مكة معتمرين — ما على هذا عاهدناكم اوحالفناكم — و كذلك انكارهم عليهم كلمتهم لأحد رؤسائهم — اسكت انمّا انت أعرابي

واذا اضفت الى ذلك نذر عبد المُطَّلِب أنه اذا ولد له عشرة من صلبه نحر احدهم عند الكعبة و كنت تعلم ايضاً ان اليهود والادوميين والموابيين وبني عمّون واهل قرطجنة ايضاً كانوا ينحرون ابناءهم بل ابناء اكبر كبرائهم للالهة زاد اعتقادك تمكُّناً بصحة ما ذهبنا اليه

بقي العقبة الكؤود التي تقوم سداً حائلاً دون قبول هذا الراي وهي اعتقاد اخواننا المسلمين ان الرسول من العرب العدنانية بناء على الشائع انه من ولد اسماعيل . ولما كان الحديث « انا ابن الذبيحين » لا يستطاع إنكاره ان لم نقل لا يجوز انكاره مطلقاً اضطر بعض العلماء المتأخرين نوعاً (ولعل اغلبهم ان لم نقل كلّهم كان من الدرجة الثانية في العلم) الى القول انّ الذبيح هو اسماعيل لا اسحق ولولا اعتقادهم هذا ما احتجنا الى هذا التأويل المخالف لما جاء في التوراة . ولما كان المقرّر عند جمهور العلماء واكابرهم وفي التوراة ايضاً كما اشرنا انّ الذبيح هو اسحق كان الرسول ابن ابراهيم من السيدة ساره لا ابنه من جاريتها هاجر

وازيد فاقول اني كنت كغيري اظنّ انّ الدم الغالب في العرب العدنانيين هو دم اسماعيل وابناء اسماعيل ولكني ارى الان انّ الدم الغالب في قريش خصوصاً هو دم ابناء اسحق عيسو ويعقوب ويَثْنِيهِ دم ابناء اسماعيل ٠ وبيانه انّ عيسو وهو ادوم وادوم اصهر الى عمه اسماعيل فاعطاه ابنته محصه او بسمة اخت بنايوت بكره او كلتيهما ٠ولما كان اسماعيل وابناؤه يسكنون اوّلا جبال فاران وعلى مقربة منهم حواليهم وعلى طريق تجاراتهم ابناء عمهم عيسو وابناء اعمامهم من قطورة كثر الزواج بينهم كثرة لا يستخف بها ٠ ثم لم يلبث ابناء اسماعيل الذين كانوا في مكة ان كثرهم اخوالهم من جرهم فازاحوهم عن رياستهم فيها فتفرّقوا في العربية وسكنوا حسب نص سفر التكوين من حويلة الى شور التي امام مصر حينما تجيء نحو اشور امام جميع اخوته ٠ (انظر سفر التكوين الاصحاح الخامس والعشرين والثامن والعشرين عدد ٦ — ١٠ والاصحاح السادس والثلاثين عدد ١ — ٢٠)

ولا شك انهم عندما ضاقت مكة بهم وباخوالهم الجرهميين وذهبت رياستها عنهم ايضاً تفرّقوا في البلاد فسكن القسم الاكبر منهم البلدان التي اشار اليها سفر التكوين ونزل القسم الاخر على اخوانهم من بني قطورة وبني عيسو ٠فكثر بها الدم الادومي فوق ما كان عليه ولعلّه زاد عن دم من بقي منهم في مكة واختلط فيها بالدم الجرهمي اوّلاً ثم بدم خُزاعة بعد ان حلّوا محل جرهم في المكان والرياسة والله يعلم وانتم لا تعلمون

وامّا الحديث عن الامام علي — نحن نبطٌ من كُوثَى — فاوضح من الواضح لانّ ابراهيم نفسه وعشيرته العبرانية الارامية هم والانباط والسريان

من اب واحد كما هو مقرَّر عند جميع نسَّابينا وجلة مؤرخينا كالطبري والمسعودي وابن خلدون وغيرهم آخرون . فأحضر كلَّ ما ذكرناه في ذهنك ثمَّ حكم عقلك ودع التقليد والمقلدين

عدلت الى هذا الاستطراد ليستجم به المطالع بعد اجهاد فكره في وعورة المباحث التي اضطرته اليها وكان يعتقدها على غير ما وضعناها له . وفوق ذلك ليعلم انَّ المسائل التاريخية المحققة قد يريها الاعتقاد المتولد في النفس على غير صورتها فيُرى الرسول وهو ابن ابراهيم من اسحق ابن الاميرة سارة ابناً لابراهيم من اسماعيل ابن الجارية فكيف لا يُريه في اللغة انَّ النسبة الى المثنى والجمع انمَّا تمتنع في مثنًّى وجمع الاعلام لا في كل جمع لانهما اي مثنى العلم وجمعه نكرات ولا تجوز النسبة الى النكرة مطلقاً لعدم الفائدة . وفوق كل ذي علم عليم

تحقيقات في الابحاث الاتية

(١) ما هو الفرق بين « اميركان » و « اميركا » وبين المنسوب اليهما
(٢) ما هو الفرق بين « عبَّادان » و « عبَّاد » وبين المنسوب اليهما
(٣) ما هو الفرق بين « جيلان » و « جيلي » والمنسوب اليهما

فنقول اولاً « الاميركان » علم لجيل من الناس يسكن بقعة خاصة به من اميركا الشمالية . واميركا علم لبقعتين من الارض مشترك بينهما وتميز احداهما عن صاحبتها بالنعت للايضاح او بما يؤدي الى ذلك من القرائن على اختلاف انواعها كاميركا الشمالية مثلاً او الجنوبية واميركا الانكلوسكسونية او اللاتينية وينسب الى اميركان فيقال اميركانيٌّ لا يجوز غير ذلك كبريطانيٌّ

وسوداني وافغاني او كعبّاداني وجيلاني او طالقاني وجرجاني الخ

ويُنسب الى اميركا فيقال اميركاوي ككيمياوي وذكرياًوي وعلباوي وارطاويّ وحُبلاوي نسبة الى بني الحبلى لا يجوز غير ذلك الاّ لغرض كالتخفيف او حسن رصف او اقامة لوزن وهو حسن رصف وحسن وقع في السمع ايضاً . وقلما يكون حسن رصف الا ويرافقه حسن الوقع في السمع . انّ بعضهم في نسبتهم الى اميركا يقولون امريكي وفقاً للفظ الفرنساوى فانهم يقولون امريك بدلاً من اميركا . ومن هذه الوجهة لا اعتراض على نسبتهم ولا خروج عن القاعدة في قولهم امريكي . ولكن الذي يُعترض به على هذه النسبة هو وضع الشيء في غير موضعه اي ان نطلق على بلاد قوم اسماً كان اطلقه غيرهم عليها ونعدل عن الاسم الذى يطلقه اهلها عليها من اميركانيين وانكليز فضلاً عن انه اصبح شائعاً على السنتنا وفي استعمالنا كشيوع الاسم الفرنساوي ان لم يكن اكثر شيوعاً . وذلك لشيوع الانكليزية في مدارسنا وكثرة المتخرجين منا في تلك المدارس ايضاً كما كانت الفرنساوية من ذي قبل او ما يزيد عنها

وممَّا يجوز في اميركاوي اميركاني بقلب الواو نوناً وقد نصّ على ذلك علاَّمة اليمن صاحب وصف جزيرة العرب ووافقه العلاَّمة المرحوم المطران يوسف داود مؤلف كتاب اللمعة الشهية في صرف ونحو اللغة السريانية . والذي يُرجَع اليه في مثل هذا القلب هو بداهة الفطرة ايضاً فمن ثمّ لا يكون واجباً لانه انما يعدل اليه للخفة او لحسن الوقع في السمع الذي يرجحه في اميركاني على اميركاوي كما رجحه في صنعاني وبهراني ودوماني وحلواني وحرستاني

وحزبياني نسبة الى صنعاء وبهراء ودوما (بالالف او بالهاء كتابة) وحرستا وحزبيا الخ ·

واماَّ الفرق بين اميركاني واميركاوي في المعنى فواضح فانَّ اميركاني عند الاطلاق يعني احد افراد الامة المعروفة باسم اميركان ومحل سكنها الخاص بعض اميركا الشمالية سواء كان ذلك الفرد في مكان السكن هذا او خارجاً عنه واما اميركاوي فيعني عند الاطلاق ايضاً احد شعوب اميركا عن غير تعيين فاذا لم تردَّه قرينة الى احد تلك الشعوب لم يفهم منه الاَّ انه غير اسياوي او غير افريقاني

واما الفرق بين عبَّاداني وعبادي فهو انَّ عباداني يعني واحداً من الذين يسكنون عبَّادان المدينة او البلدة المنسوبة الى عبَّاد بانيها واماَّ عبَّادي فيعني احد افراد بيت عبَّاد او المنتسبين اليه · واماَّ طالقاني وجرجاني وامثالهما فيعنيان ما عنى بعباداني الاَّ انَّ بانيهما قد ضاع اسمه ونسبه من التاريخ بخلاف عباد باني عبادان فانه مما حفظ لنا اسمه في صفحات التاريخ ولعلَّ له بعدُ انسالاً يُنسَبون اليه ايضاً

واما الفرق بين جيلاني وجيلي فهو انَّ الجيلاني يعنى احد الذين يسكنون مدينة الجيل الامة والشعب المعروف واما الجيلي فاحد افراد هذا الشعب سواء كان ساكنا جيلان او ساكناً في مكان آخر غيرها على عكس اميركان واميركاوي او امريكي وفقاً للفظ الفرنساوي

بعد اذا وضحت ما اوضحته في هذا البحث الذي دارت حوله المشادَّات في غير ما مجلة من عهد قريب اقول اني بذلت كل جهدي كما اعتقد لأُخاص

لحكم العقل المنطبق على احكام البداهة الفطرية العامة لا للمحاماة عن رايي الخاص · وبهذا الاخلاص اقول — بعد اذا اوضحت ما اوضحته — ليختر كلٌّ ما يحلو له من الصور التي اشرنا اليها في اميركاني واميركي او امريكي على شريطة ان ينصب القرينة الدالة على ما يريد · ولا يتهيَّب متهيّبٍ ان يعتمد على بداهة فطرته او ان يتابع ما شاع وغلب على عموم الالسنة فانَّ مثل هذا قلما يخالف بداهة الفطرة · ثمَّ في الوقت نفسه قلما تخالف هذه البداهة احكام العقل في اللغة

بحث آخر في المنسوب الى مثل روحاني وجسداني وشعراني ولحياني

الاصل في هذا النوع من النسبة كالاصل في غيره اي انَّ النسبة فيه انما هي الى الموصوف لا الى الصفة · على انه جاء امثلة منه نسب فيها على ما في الظاهر الى الصفة كبلتعاني وعُمُدَّاني نسبة الى بلتع وعُمُدّ · وقريب من هذا النوع قولهم اسمراني وابيضاني · ولكنك اذا روَّيت رايت انَّ مثل هذه الالفاظ هي وإن كانت من الصفات يجوز ان يراد بها موصوف ومن هذه الحيثية صحَّت النسبة وتسارعت الى استعمالها الالسن ببداهة الفطرة · وانت ايضاً اذا روَّيت ظهر لك انه على خفاء الموصوفية وظهورها تعتمد بداهة الفطرة · فإن ظهرتْ لها كما في اسمر وابيض نَسَبَتْ من غير تهيُّبٍ فقالت اسمراني وابيضاني والاَّ احجمت ولذلك فقلما نسمع من يقول ازرقاني او اخضراني يخبرون بهما مثلاً كما يقولون ابيضاني او اسمراني اخباراً بهما

وقد ينسبون رأساً الى هذا النوع من الصفة اعني وزن أَفعل بدون ان يتوسَّلوا بزيادة الالف والنون اولاً كـأحوذي وأَكدري ٠ وقد فطن لهذا النوع من النسبة شارح ديوان النابغة العلاّمة الوزير ابو بكر ابن ايوب البطليوسي المتوفىَّ سنة ٤٩١هـ ٠ واليك ما قاله في شرح البيت

زعمِ الغدافُ بأنَّ رِحلتنا غداً وبذاك خبَّرنا الغرابُ الاسودِ

قال : وكان النابغة قد اقوى في هذا البيت فلما دخل عيب عليه فتجنبه ولم يقْوِ بعد ويروى الاسود بالخفض على ان يكون اراد الاسودي لانَّ الصفات قد تزاد عليها بالنسبة فيقال الاحمر والاحمري وكذلك الاسود والاسودي فمن ذهب الى هذا لم يكن في البيت إقواء وخرج احسن مخرج اهـ

واذا هم نسبوا الى اسود فليس بدعاً ان ننسب نحن في جيلنا الى كل ذوات الالوان من مثله كاصفري واخضري لكن مع القرينة المسوغة وعند الحاجة والمسموع اليوم على الالسنة لونٌ صفراوي وخضراوي نسبة الى صفراء وخضراء ٠ فلا نتهيب من استعمال هذا النوع من النسبة حيث تعدل اليه بداهة الفطرة وبعبارة اخرى حيث لا ينبو عنه الذوق العام فانَّ به وبمثله يقوم شرف العربية وتفوُّقها وغناها من غير ان تستمدَّه من لغة اجنبية بل لا يضيرها فيما لو كانت استمدَّته سابقاً او تستمدُّ مثله في المستقبل من لغة اخرى غيرها فانَّ لها لو تفعل ذلك اسوة باكثر اللغات الاوروباوية الراقية التي استمدَّتْ من اللاتينية واليونانية ولا تزال تستمدُّ منها الالفاظ العلمية ، وتستمد بعضها من بعض بل ومن كل لغات الشعوب التي استعمرتها ما هو خاصٌّ بها

من الالفاظ التي ترى الحاجة ماسة اليها : لا فرق بين ان تكون تلك الالفاظ مما يُغْني لغة العلم او يغني لغة الاجتماع

وصلت هنا الى حقيقة لا يسعني ان امرَّ بها بدون اشارة اليها وهي انْ ثم لغتين في لغة كل مجتمع راق لغة العلم او العلماء ومن مقولتها لغة كل صناعة حسيَّة كانت او معنويَّة . وقوام هذه اللغة على التجربة والمقابلة بين انواع الموجودات لترتيبها اجناساً وانواعاً من اقرب الانواع الموضوعة للماهية المشتركة بين الافراد الى الجنس الاعلى الشامل لكل ما تحته ولغة الاجتماع او المجتمع وهي لغة الادب والشعر والفلسفة وتعتمد على الفكرة لا على التجربة الخاصّة وهي مشتركة بين كل افراد المجتمع الذى يتكلم بتلك اللغة على انَّ الخاصَّة منهم لهم الشعر الخاص والفلسفة الخاصة وللعامة شعرهم وفلسفتهم ويشاركهم فيهما ايضاً الخاصّة كما لا يخفى على متامل

هذه اللغة اعني لغة الاجتماع لا تشرف بمجرد كثرة المفردات ولا بأَن تكون تلك المفردات خالدة فيها بل تشرف بالقوَّة المولدة التي في طباعها لان خلو مفردات كل لغة يعني موتها وفي الوقت نفسه هو عنوان على موت فكرة اهليها ايضاً

والحمد لله انَّ الامر ليس كذلك في لغتنا . ومن راجع ما هو مدوَّن في معاجم لغتنا يرى انَّ مئات بل الوفاً من تلك المفردات هي وإن كانت لا تزال مدوَّنة في بطون المعاجم ودواوين من خلوا قد ماتت في الاستعمال وهيهات ان تعود الى الحياة

هذه الاموات التي يحاول بعضنا احياءها كان الاولى بهم وبها ان لا

ينبشوها من قبورها · وهذه المواليد المستجدّة التي القحها تغيُّر الاحوال والعادات والاعتقادات وتجدُّد المكتشفات والمعلومات لا بدّ من أن يعيش كل ما هو صالح منها للحياة مهما حاولنا أنْ نقضي عليه في مهده ومهما اتّهمنا منتجيه بتهمة تشويش اللغة

ما لنا ولمئات المترادفات الموضوعة بازاء الجمل والاسد والحية وانواع الالبان وامثال ذلك اما كان اولى بنا على الاقل ان ندفنها في دفاتر خاصة تَحفَظ فيها محنَّطاتٍ لتدل فقط على سالف وجودها من ان نبقيها عثرة في طريق كثيرين يتبجّحون بها فيهنف بنا العقلاء من غير امتّنا من اجل هذا التبجّح الفارغ والتافه معاً فلا نقف في طريق العارض الهَطِل فإنّا وإن استطعنا ان نردّه عن مجراه اليوم فلا نستطيع ذلك غداً ولكل شيء اجل فاذا جاء اجلهم لا يستطيعون ان يتقدموا ساعة ولا يتأخرون

النوع الثالث من علامة النسبة

هذا النوع من النسبة ، ويُظَنّ انه غريب عن العربية لا مسوِّغ له فيها لانه نسبة تركية محضة ، علامته « جي » بدلا من « يي » والذى اراه انه عربي محض او على الاقل منتَحل عن العربية متحصل عنها ومهما كان اصله فهو مما يزيد في غنى اللغة زيادة لا يستخفّ بها ولا ينكره في اعتقادي الاّ من لم يوجهوا التفاتهم الى فلسفة اللغة على ما اتّفق عليه كل علماء الفيلولوجيا في الوقت الحاضر · قلت إني ارى هذا النوع من النسبة عربي محض او مُستخلص متحصّل عن العربية ولعلّ علماء الاتراك انتبهوا اليه دوننا واليك البيان

معروف ومنقول عن قدماء الأيمّة وملاحني اهلها في صدر الاسلام انّ من العرب من يقلبون الياء جيماً فيقولون في راعي راعج . واما العكس وهو قلب الجيم ياء فهو كثير شائع عند العرب والاعاجم فيقولون في جوبيتر يوبيتر وفي جونو يونو ويتركون كل ذلك لبداهة الفطرة او سلامة الذوق العام بشرط الاستفادة من هذا القلب. فاذا لم يكن ثمّ فائدة فلا مسوغ له قطعاً

وقد راى علماء الاتراك فائدة هذا القلب المبنى على تجانس الحروف فقلبوا من ثمّ ياء النسبة الأُولى جيماً وقالوا في من يبيع الخضر خضرجي وفيمن يتولى امر صندوق المحل التجاري او صندوق البنك صندوقجي او صنَدُقجي بترك اشباع ضم الدال ومكتوبجي الولاية لمن يتولى امر ما يكتبه الولاة او ما يتوجّب عليهم كتابته مما يتعلق بالولاية وقائمقام مكتبجي لمن تَعلّم في المكتب السلطاني لتخريج القائمقامين للادارة او للعسكرية الخ الخ

فلماذا لا نستفيد نحن من هذا القلب المأخوذ عن لغتنا[1] ونزيد بذلك غناها اي غنى لغتنا بوضع الصور المختلفة من اصلٍ واحدٍ للمعاني المختلفة من اصل واحد كصناديقي وصندوقجي مثلاً الصورة الاولى لمن يبيع الصناديق او لمن يصنعها والثانية لمن يتولى امر صندوق البلدية مثلاً او البنك او المحل التجاري كما أشرنا . وليس من الضرورة ان نظنّ وجوب تعميم كل صورة من صور

---

(١) بعد ان اتيت على اخر هذا النوع من النسبة وقفت للعلامة الامام جلال الدين السيوطي نقلاً عن ابن فارس على ما نصه بالحرف قال منها العنعنة والكشكشة والحرف الذي بين الجيم والكاف في لغة اليمن وابدال الياء جيماً في الاضافة نحو غلامج وفي النسبة نحو بصرج و كوفج المزهر جلد ١ صفحة ١١٠

النسبة الثلاث هذه بل نستعمل اقربها الى بداهة الفطرة وانسبها لغرضنا الذى نتوخَّاه من سهولة فهم او حسن رصف او اقامة وزن

واعود فأقول ان كلَّ ما عُدِلَ عنه بغرض فالعدول غير واجب ويجوز فيه الرجوع الى الاصل عند الحاجة او اذا عَدِمَ الغرض الذى لجأنا معه الى العدول كتقدير علامة الرفع والجر في مثل قاضي فإنه يجوز اظهارها اذا احتجنا الى اقامة الوزن[1] كما انا نُقَدِّر علامة النصب في مثله للغرض عينه قال الشاعر

ولو أنَّ واش باليمامة داره وداري باعلى حضرموت اتانيا

وكمنع الصرف في الاعلام وصيغة منتهى الجموع فإنا نُنَوِّن هذه الاسماء ونجرُّها بالكسرة اذا أردنا إقامة وزن او كان الثقل مما لا يعتدُّ به لخصوصيَّة في اللفظ تدرك ببداهة الفطرة واليك ما جاء لامرئ القيس

ولما دخلت الخدر خدر عنيزةٍ فقالت لك الويلات إنَّك مرجلي

او ما جاء في التنزيل «وسلاسلاً وقيوداً» فليَحفَظْ هذا من يشاء وينكره من يشاء ان يضيِّق على نفسه ويجعلها عبداً لرأي بعضهم وربما كان ذلك البعض مقلِّداً او قال برأيه على المخيَّل من غير ما استقراء مصحِّح

---

(١) مثال ذلك ضم ياء تساوي في قول الشاعر في مدح عبيد الله ابن العباس الهاشمي

تأمَّلته لما رأيتُ مهابةً عليه وقُلتُ المرءُ من آل هاشمِ
وإلاَّ فمن آل المرار فانهم ملوك عظام من ملوك اعاظم
فقمتُ الى عنز بقية اعنُزٍ فاذبحها فعل امرئٍ غير نادمِ
فعوَّضني عنها غناي ولم تكن تساوي عنزى غير خمس دراهم

(امين ظاهر خيرالله)

خاتمة

وهنا اختم رسالتي هذه وهي خلاصة ما وصلت اليه بعد السنين الطويلة في الدرس والتفكير ومراجعة ما كتبه كثيرون في علوم اللغة قديماً وحديثاً إن في لغتنا التي نحب ان تبلغ ما بلغه غيرها من اللغات الغربية الراقية او الانكليزية اغنى هذه اللغات في ايامنا هذه . وانا أقدمه لانظار من ياتي بعدي علهم يرون فيه ما يوجب تمحيصه وتقديمه شراباً سائغاً للناشئة التي يكتبون لها اقامة لِحِيارها في طريق الارتقاء السَوي الذى كنا نتوخاه متتبعين فيه خطوات من سبقنا في نهضة الافكار الاخيرة مستعينين بآراء اكابر علمائهم في كل ما توجَّهت اليه افكارنا اثناء الخمسين سنة الاخيرة وقد ساعدنا على ذلك مركزنا في الكلية السورية الانجيلية التي صارت الى الجامعة الاميركانية في بيروت موَخراً وستبقى باذنه تعالى منارة يزداد نورها سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل تخدم هي وغيرها من جامعاتنا ومدارسنا وكلياتنا العلمية العالية الغرض الاسمى من اطاعة الله وخدمة القريب باعطاء كل ذي حق حقه من غير منٍّ ولا ادعاء تفوُّقٍ او سيادة انه السميع المجيب

تمَّت الرسالة في مسوداتها الاولى نهار الاثنين عشرين آب سنة ١٩٢٩ الساعة التاسعة ق . ظ

فهرس رسالة النسبة

١ — ٢ تحديدها وطريقها

٣ — ٣٤ ماذا يكون المنسوب اليه

٣ علما لشخص او لمكان

٤ المختوم بهاء التأنيث صفةً

٥ المختوم بهاء الوحدة

٩ بحث في انواع الهاء

٩ بحث في اسماء النكرة واسماء الجنس بماذا يشتركان وبماذا يختلفان

١١ تاريخ «كنائسي» ام «كنسي»

١٣ المنسوب الى الجمع والتعليل عن صحة النسبة فيه واليه

٢٣ بحث في اسم الجنس كرجل

٢٦ النسبة الى الاعلام المختومة بهاء التأنيث او بهاء الوحدة

٣٥—٤٤ كيف ننسب

٣٥ خصوصية للنسبة

٣٦ النسبة الى الاعلام الاعجمية لمؤنث

٣٧ النسبة الى اعلام الامكنة عندنا

٤٠ النسبة الى الاعلام المختومة بالهاء لمذكر عاقل

٤١ كيف ننسب الى مثل قريش وثقيف

٤٥ — ٦٦ انواع النسبة بالنظر الى ما يزاد على اخر المنسوب اليه

٤٥ النوع الاول زيادة ياء مشددة

٤٦ النوع الثاني — النسبة السريانية

٥٨ الفرق بين «اميركان» و«اميركا» وبين المنسوب اليهما

٦٠ الفرق بين «عبادان» و«عباد» وبين المنسوب اليهما

٦٠ الفرق بين «جيلان» و«جيلي» وبين المنسوب اليهما

٦١ بحث في المنسوب الى مثل روحاني

٦٤ النوع الثالث — النسبة التركية

٦٧ خاتمة